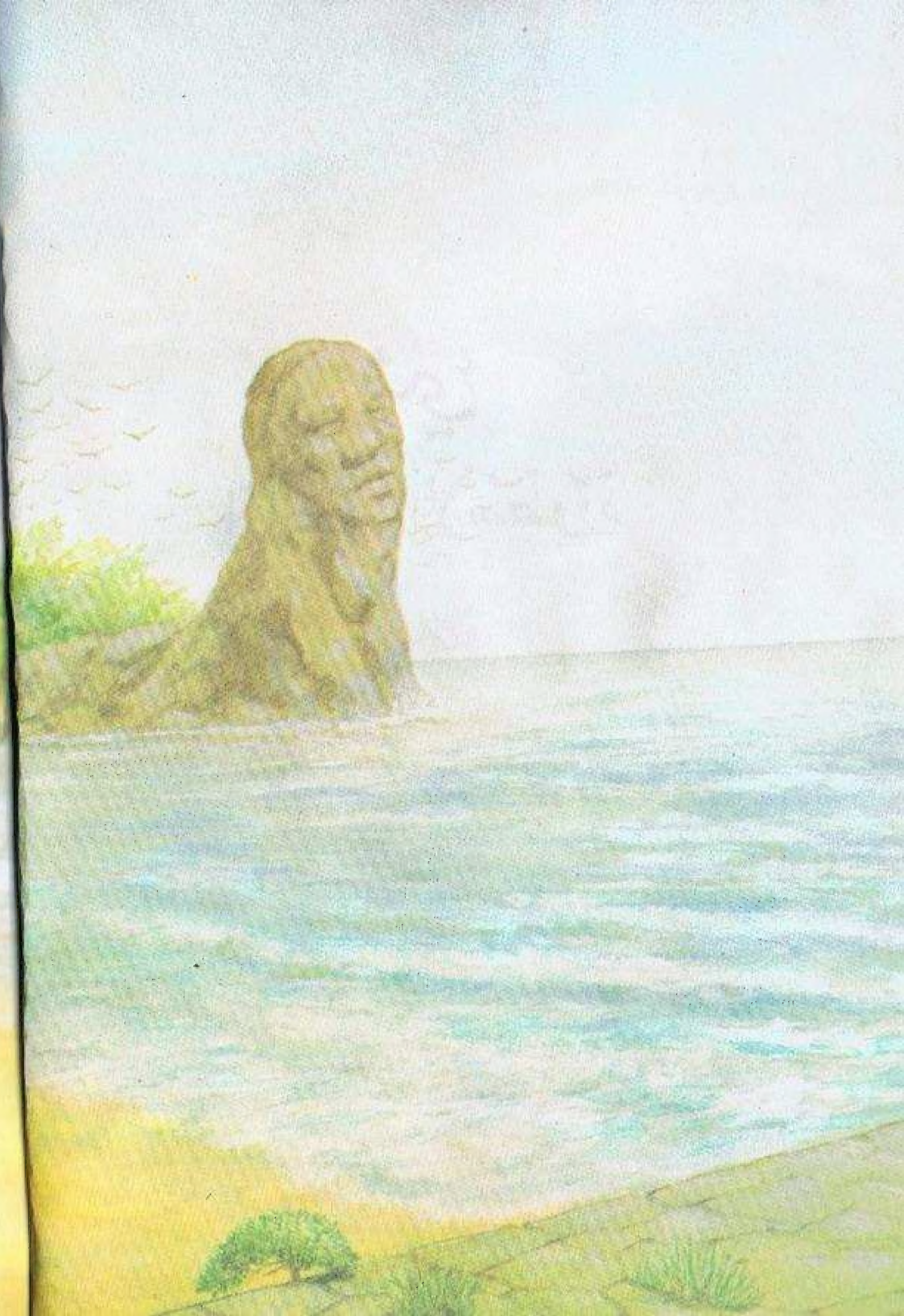
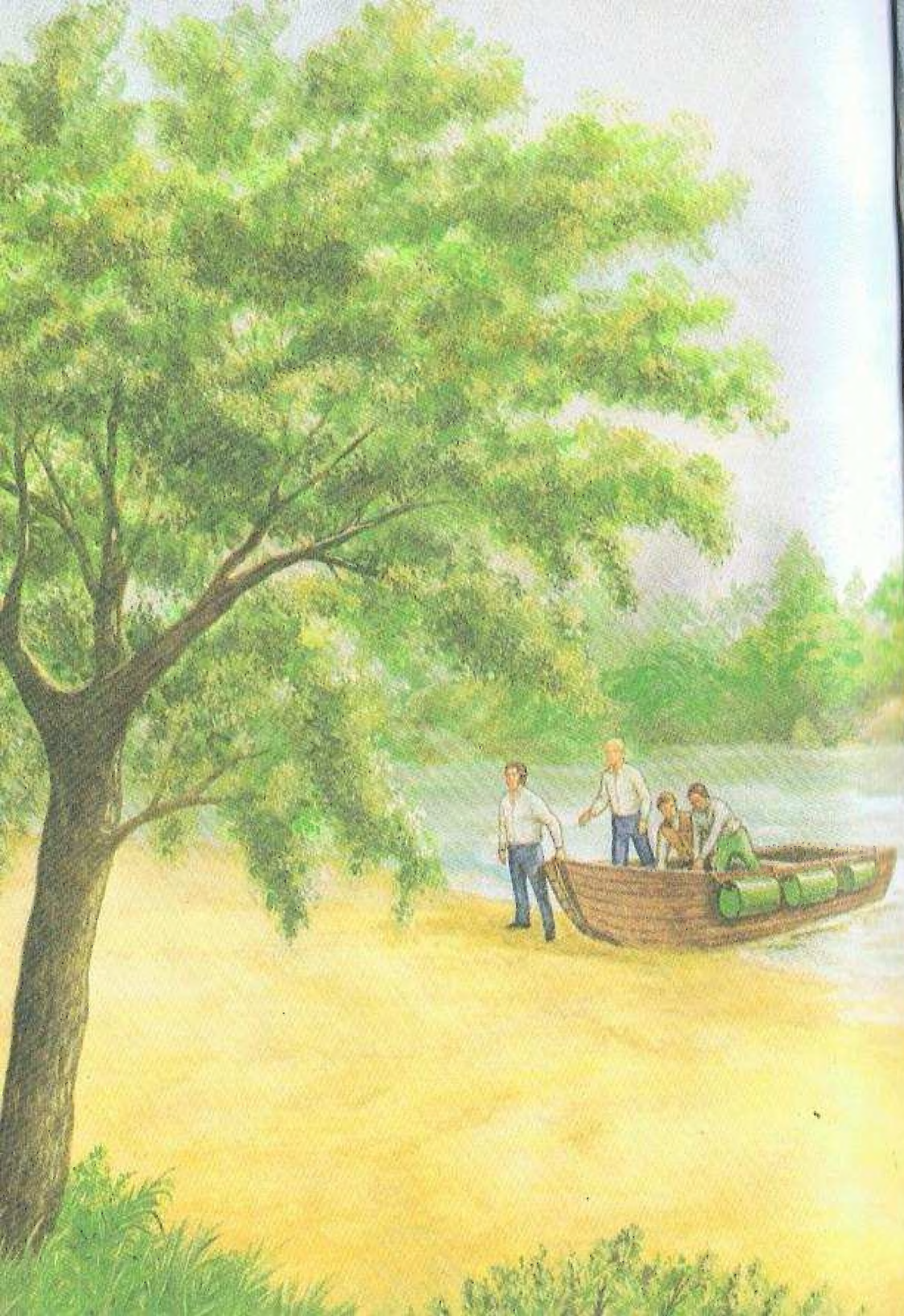


ثي الملكة الأسطورية



الروايات المشهورة





شي المللة الأسطورة



تأليف : هـ. رايدار هاغارد
إعداد : الدكتور اللواء السيد أبو مسلم
رسوم : ممدوح الفرماوي

مكتبة لبنان
بيروت

الفصل الأول كيف وصلتني هذه القصة

بينما كنت أسير في أحد شوارع مدينة كمبردج مع صديق لي ، لاحظت شخصين قادمين نحونا ، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر . كان أحدهما شاباً وسيماً للغاية ، طويل القامة ، مليح القسَمات . وعندما رفع قبعته لتحية إحدى السيدات كشف عن شعره الذهبي اللامع ، فقلت لصديقي : « يا له من شابٍّ وسيم ! »

فقال مؤيداً : « نعم ! إنه أكثر شباب الجامعة وسامة . ويُطلق عليه البعض اسم « المعبود الإغريقي » . أما اسمه الحقيقي فهو فنسي . ولكن أنظر إلى الشخص الآخر ، الأكبر سناً إنه يدعى هولي ، وهو الوصي على هذا الشاب حتى يبلغ الخامسة والعشرين من عمره . ويُطلق بعض الناس عليهما اسمي « الحسن والبشاعة » . »

ونظرت إلى هولي ، وكان يبدو في حوالى الأربعين من عمره ، وهبه الله من الدمامة بقدر ما وهب الآخر من الجمال . كان قصير القامة

قويّ البنيان ، له ذراعان طويلتان ، وشعر داكن ، وعينان ضيقتان . وظننت أنني أنظر إلى فردٍ قبيحٍ ولكني لمحت في عينيه ما يدل على الرقة والحنان ، فقلت لصاحبي : « أود أن أتعرف إليهما . » فاصطحبني صديقي إليهما ، ووقفنا بضعة دقائق نتحدث . تحدثنا عن إفريقية ؛ إذ كنت قد عدت لتوي من هناك . وفي تلك اللحظة مرت بنا سيدتان ، وكان من الواضح أن فنسي يعرفهما . ثم حدث شيء غريب ، فعندما التفت فنسي ليتحدث مع السيدتين توقف هولي فجأة عن الحديث معي ، ثم استدار وأسرع يتعدى عبر الشارع : بدا وكأنه يخاف من النساء خوفاً من كلبٍ مسعور .

وغادرتُ مدينة كمبردج في الليلة نفسها ، ولم يشغلني هذا الموضوع لسنواتٍ طويلة . ومنذ شهرين تلقيت خطاباً ، ولما قرأت اسم مُرسِل الخطاب تبينت أنه هوراس هولي ، واستغرق مني الأمر بعض الوقت قبل أن أتذكر من هو هوراس هولي ، وكان الخطاب كما يلي :

« كمبردج »

« سيدي العزيز »

« لقد قابلتك منذ خمس سنوات في أحد شوارع مدينة كمبردج ، وكنت أصطحبُ آنذاك ليو فنسي . وقد بدأتُ أقرأ في الآونة الأخيرة

كِتَابِكَ : « كُنُوزُ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ » وَ « أَلَنْ كُؤَاتِرْمَانَ » . وَالْقِصَّتَانِ
عَنِ الرَّحَلَاتِ وَالْأَحْدَاثِ الْعَرَبِيَّةِ فِي إِفْرِيقِيَّةَ ، وَالَّتِي تَمْتَرِجُ فِيهَا الْحَقِيقَةُ
بِالْحَيَالِ .

« وَهَآنَذَا أُرْسِلُ لَكَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأُورَاقِ تَحْوِي قِصَّةً تَحْكِي بَعْضَ
الْأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ لِي أَنَا وَلِيُو قُنْسِي . وَهِيَ أَحْدَاثٌ تُبْلَغُ مِنَ الْعَرَابَةِ
حَدًّا يَجْعَلُنِي أَعْتَقِدُ أَنَّكَ لَنْ تُصَدِّقَهَا .

« لَقَدْ اتَّفَقْتُ مَعَ لِيُو قُنْسِي عَلَى ضَرُورَةِ نَشْرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ . إِنَّا
سَنُغَادِرُ إِنْجَلْتِرَا قَرِيبًا لِسَبَبٍ سَوْفَ تَتَبَيَّنُهُ قَوَرٌ فَرَاغِكَ مِنْ قِرَاءَةِ قِصَّتِنَا .
وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَنْ تَقْرَأَهَا وَتُشْرِفَ عَلَى طِبَاعَتِهَا .

« وَأُرْسِلُ لَكَ أَيْضًا الْخَاتَمَ وَشَقْفَةَ الْجَرَّةِ الْمَكْسُورَةِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ
عَنْهُمَا هَذِهِ الْأُورَاقُ .

« لَيْسَ عِنْدِي مَا أُضِيفُهُ إِلَى مَا كَتَبْتُهُ . وَلَكِنْ مَنْ تَكُونُ « شَيْءٌ » ؟
وَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ ؟ وَكَيْفَ وَصَلَتْ إِلَى كَهُوفِ خُور ؟ إِنَّا لَمْ نَتَوَصَّلْ
إِلَى إِجَابَاتٍ عَنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ ؛ وَقَدْ لَا نَتَوَصَّلُ إِلَى تِلْكَ الْإِجَابَاتِ أَبَدًا ؛
وَقَدْ ...

« إِنَّا كَمَا قُلْتُ سَنَقُومُ بِرَحَلَةٍ ، فَالْرَّجَاءُ الْإِهْتِمَامُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ حَتَّى
لَطَلْبِهَا مِنْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذَا عُذْنَا .

المُخْلِصُ

ل. هُورَاس هُولِي «

هَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ الَّتِي وَصَلْتَنِي بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ الْغَامِضَةِ .

هَنْرِي رَايْدِر هَغَارْد

وَبَيْنَمَا كُنْتُ مُسْتَعْرِقًا فِي اسْتِذْكَارِ دُرُوسِي فِي سَاعَةِ مُتَأَخَّرَةٍ مِنْ لَيْلَةٍ
شَدِيدَةِ الْبُرُودَةِ سَمِعْتُ طَرَقًا بِالْبَابِ . وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ صَدِيقِي قُنْسِي
مَرِيضٌ ، وَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَضُ قَدْ اسْتَدَّ بِهِ فَلَجَأُ إِلَيْ ، فَأَسْرَعْتُ
لِافْتِحِ الْبَابِ .

صَدَقَ إِحْسَاسِي ، فَقَدْ كَانَ قُنْسِي هُوَ الطَّارِقُ ، وَكَادَ أَنْ يَسْقُطَ عَلَى
الْأَرْضِ مِنْ فَرَطِ الْإِغْيَاءِ عِنْدَمَا فَتَحْتُ الْبَابَ . كَانَ شَاحِبَ الْوَجْهِ ،
بِعَتَصِرِهِ الْأَلْمُ ، وَالْدَّمُ يَسِيلُ مِنْ زَاوِيَةِ فَمِهِ . وَكَانَ يَحْمِلُ صُنْدُوقًا
حَدِيدِيًّا ثَقِيلًا ، وَضَعَهُ فَوْقَ الْمِنْضَدَةِ ، ثُمَّ أَنَهَارَ عَلَى الْكُرْسِيِّ ، وَظَلَّ
يَبْضَعُ دَقَائِقَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الْحَدِيثِ . فَصَبَبْتُ لَهُ بَعْضَ الْعَصِيرِ فِي
كُوبٍ فَتَنَاوَلَهُ وَشَرِبَهُ ، فَتَحَسَّنَتْ حَالُهُ قَلِيلًا .

الفصل الثاني كَيْفَ وَصَلَ الصُّنْدُوقُ الْحَدِيدِيُّ إِلَى هُولِي

كُنْتُ ، أَنَا لُودَفِيعُ هُورَاسِ هُولِي ، أَجْلِسُ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَفِي سَاعَةِ
مُتَأَخَّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، فِي شَقَّتِي بِمَدِينَةِ كِمْبِرْدُجِ . وَقَدْ حَدَثَ هَذَا مُنْذُ
أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً . وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أُؤَدِّيَ امْتِحَانًا بَعْدَ أُسْبُوعٍ ،
لِأَصْبِحَ مُدْرِّسًا فِي الْجَامِعَةِ إِذَا أَجْتَزَّتُهُ .

كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَكَمَا أَنَا الْيَوْمَ ، رَجُلًا بِلاَ أَصْدِقَاءَ . وَأَنَا
شَخْصٌ دَمِيمٌ لِلْغَايَةِ ، وَهَذَا مَا أَعْرِفُهُ عَنْ نَفْسِي جَيِّدًا . وَأَتَمَتَّعُ بِقُوَّةِ
جَسَدِيَّةٍ خَارِقَةٍ . وَدَفَعْتُ شَكْلِي وَمَظْهَرِي النَّاسَ إِلَى أَنْ يُطْلِقُوا عَلَيَّ اسْمَ
الْقِرْدِ .

وَكَانَ فِي هَذَا مَا جَعَلَنِي أَتَخَشَّى صُحْبَةَ النِّسَاءِ ، وَأَعْرِفُ عَنْ رُفْقَةِ
الرِّجَالِ ؛ لِذَا لَمْ يَكُنْ لِي وَأَنَا أَدْرُسُ فِي جَامِعَةِ كِمْبِرْدُجِ سِوَى عَدَدٍ
قَلِيلٍ جِدًّا مِنَ الْأَصْدِقَاءِ ، وَكَانَ قُنْسِي وَاحِدًا مِنْهُمْ . وَلَعَلَّهُ مِنْ غَرَائِبِ
الْمُصَادَفَاتِ أَنْ يَكُونَ قُنْسِي هَذَا مِنْ أَكْثَرِ مَنْ عَرَفْتُ مِنَ الرِّجَالِ
وَسَامَةِ .



لَكِنَّ وَطْأَةَ الْمَرَضِ كَانَتْ شَدِيدَةً عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : « اِسْمَحْ لِي
أَنْ أَذْهَبَ لِأَسْتَدْعِيَ الطَّبِيبَ . »

فَأَجَابَ : « لَا ! لَقَدْ أَنْتَهَيْتُ يَا هُولِي ، وَلَنْ يَطْلُعَ عَلَيَّ النَّهَارُ . لَنْ
يَسْتَطِيعَ أَيُّ طَبِيبٍ أَنْ يُسَاعِدَنِي . الْآنَ أَسْتَمِعُ حَيِّدًا لِمَا سَأَقُولُهُ لَكَ ؛
لَأَنَّكَ قَدْ لَا تَسْمَعُ صَوْتِي بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا . لَقَدْ كُنَّا صَدِيقَيْنِ طَوَالَ
عَامَيْنِ ، وَالْآنَ قُلْ لِي مَا تَعْرِفُهُ عَنِّي . »

قُلْتُ : « أَعْرِفُ أَنَّكَ شَابٌّ ثَرِيٌّ ، وَأَنَّكَ التَّحَقَّقْتَ بِالْجَامِعَةِ وَأَنْتَ
فِي سِنٍّ أَكْبَرَ مِنْ بَقِيَّةِ أَقْرَانِكَ بِالْجَامِعَةِ . وَأَعْرِفُ أَنَّكَ كُنْتَ مُتَزَوِّجًا ،
وَأَنَّ زَوْجَتَكَ قَدْ تُوْفِيَتْ ، وَأَنَّكَ خَيْرُ صَدِيقٍ لِي . »

سَأَلَنِي : « هَلْ تَعْرِفُ أَنَّ لِي أَبْنَاءً ؟ »

أَجَبْتُهُ : « لَا ! »

فَقَالَ : « إِنَّ لِي أَبْنَاءً يَبْلُغُ مِنَ الْعُمُرِ خَمْسَ سَنَوَاتٍ ، تُوْفِيَتْ وَالِدَتُهُ
أَثْنَاءَ وَلَادَتِهِ ؛ وَلِهَذَا لَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ أَبَدًا فِي رُؤْيِيهِ . إِنِّي أَوْدُ يَا هُولِي
أَنْ أَجْعَلَ مِنْكَ وَصِيًّا عَلَيْهِ . »

فَقَفَزْتُ مِنْ مَقْعَدِي قَائِلًا : « أَنَا ؟ ! »

أَجَابَ : « نَعَمْ . لَقَدْ كُنْتُ أُبْحَثُ عَمَّنْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَّيِمَهُ عَلَى
وَلَدِي ، وَعَلَى هَذَا . »

وَأَشَارَ إِلَى الصُّنْدُوقِ الْحَدِيدِيِّ ، وَوَصَلَ كَلَامَهُ : « أَنْتَ ذَلِكَ
الرَّجُلُ يَا هُولِي . فَأَنْتَ رَجُلٌ قَوِيٌّ ، وَأَمِينٌ ، وَعَطُوفٌ . اِسْمَعْ : إِنَّ
هَذَا الصَّبِيَّ سَيَصِيرُ آخِرَ سُلَالَةٍ عَائِلَةٍ مِنْ أُعْرَقَ عَائِلَاتِ الدُّنْيَا . قَدْ
نَضَحْتُ لِمَا أَقُولُهُ لَكَ الْآنَ ، وَلَكِنَّ الْأَيَّامَ سَتُثَبِّتُ لَكَ قَوْلِي هَذَا بِمَا
لَا يَدْعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ . وَسَتُثَبِّتُ لَكَ أَنَّنِي أَنَحْدِرُ مُبَاشَرَةً مِنْ سِلْسِلَةٍ
مِنْ خَمْسَةِ وَسِتِّينَ فَرْدًا يَنْتَمُونَ إِلَى جُنْدِيٍّ يُونَانِيٍّ كَانَ يَعْمَلُ فِي خِدْمَةِ
فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ الْقَدِيمَةِ . وَكَانَ اسْمُهُ هَذَا الْجُنْدِيُّ كَالِيكَرَاتِسَ ،
و « كَالِي » كَمَا تَعْرِفُ كَلِمَةً يُونَانِيَّةً مَعْنَاهَا الْجَمِيلُ ، « وَكَرَاتِسَ »
مَعْنَاهَا الْقُوَّةُ .

« وَقَدْ أَصْبَحَ ابْنُ هَذَا الْجُنْدِيِّ فِيمَا بَعْدَ كَاهِنًا فِي مَعْبَدِ آلِهَةِ
إِيزِيسَ . وَكَانَ ذَلِكَ مُنْذُ أَلْفِي عَامٍ تَقْرِيْبًا . وَقَدْ وَقَعَ كَالِيكَرَاتِسَ الْكَاهِنُ
فِي غَرَامِ أَمِيرَةٍ مِنْ عَائِلَةِ فِرْعَوْنَ ، وَغَادَرَا مِصْرَ سِرًّا عَلَى ظَهْرِ إِحْدَى
السُّفُنِ . وَلَكِنَّ الرِّيَّاحَ سَاقَتْ السَّفِينَةَ إِلَى سَاحِلِ إِفْرِيقِيَّةَ ، وَمَاتَ رُكَّابُهَا
كُلُّهُمْ وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ سِوَى كَالِيكَرَاتِسَ وَالْأَمِيرَةِ ؛ إِذْ أُنْقَذَتْهُمَا مَلِكَةٌ
جَمِيلَةٌ يَبْضَاءُ كَانَتْ تَحْكُمُ شَعْبًا بُدَائِيًّا يَسْكُنُ هَذِهِ الْمِنْطَقَةَ ، وَعَاشَا
فِي بَيْتِهَا . وَسَتَعْرِفُ الْقِصَّةَ مِنْ قِرَاءَتِكَ الْآوْرَاقِ الَّتِي فِي هَذَا
الصُّنْدُوقِ ، وَسَتَعْرِفُ أَيْضًا أَنَّ هَذِهِ الْمَلِكَةَ قَتَلَتْ كَالِيكَرَاتِسَ ، وَأَنَّ
الْأَمِيرَةَ فَرَّتْ إِلَى الْيُونَانِ وَمَعَهَا طِفْلُهَا .

« وَعِنْدَمَا كَبِرَ الطِّفْلُ اتَّخَذَ اسْمَ فِينِدُكُسَ ، وَاتَّخَذَهُ أَوْلَادُهُ وَأَخْفَادُهُ

مِنْ بَعْدِهِ . وَهُوَ اسْمٌ لَاتِيئِي يَعْنِي الْمُسْتَقِيمَ ، أَوْ آخِذَ بِالثَّأْرِ . وَبِمُرُورِ
السَّنِينَ رَحَلَتِ الْعَائِلَةُ مِنَ الْيُونَانِ إِلَى رُومَا ، وَانْتَقَلَتْ مِنْ رُومَا إِلَى
فَرَنْسَا ، وَمِنْ فَرَنْسَا إِلَى إِنْجِلْتَرَا ، وَحُرِفَ اسْمُ فِينْدِكُسَ إِلَى فِنْسِي .

« وَقَدْ انْتَقَلَتْ مُحتَوِيَاتُ هَذَا الصُّنْدُوقِ مِنْ أَبٍ لِابْنِهِ عِبْرَ الْأَجْيَالِ ،
حَتَّى سَلَّمَهَا لِي وَالِدِي . وَكَانَ الْأَمَلُ يَحْدُو أَجْدَادِي فِي أَنْ يَنْتَقِمَ وَاحِدٌ
مِنْ هَذِهِ الْأَجْيَالِ لِجَرِيْمَةِ الْقَتْلِ الَّتِي وَقَعَتْ مُنْذُ مِائَاتِ السَّنِينَ عَلَى يَدِي
الْمَلِكَةِ الْبَيْضَاءِ فِي إفْرِيقِيَّةِ .

« وَحَاوَلْتُ أَنْ أَقُومَ بِوَاجِبِي نَحْوَ الْعُثُورِ عَلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي
وُصِفَ فِي الْأَوْرَاقِ الْمَوْجُودَةِ بِالصُّنْدُوقِ ، وَلَكِنْ دُونَ أَنْ أَفْلِحَ . وَاثْنَاءَ
عَوْدَتِي مِنْ إفْرِيقِيَّةِ تَعَرَّفْتُ إِلَى زَوْجَتِي ، الَّتِي تُوَفِّيتُ اثْنَاءَ وَلادَتِهَا ابْنِي
لِيُو .

« وَعُدْتُ إِلَى عَمَلِي مَرَّةً أُخْرَى ، وَرَأَيْتُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ
أَتَوَجَّهَ إِلَى إفْرِيقِيَّةِ أَنْ أَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ . وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي جِئْتُ
إِلَى هُنَا مِنْ أَجْلِهِ ، وَلَكِنْ فَاتَ الْأَوَانُ . »

وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَبَيَّنَ أَنَّهُ كَانَ مُصِيبًا ؛ فَقَدْ فَاتَ الْأَوَانُ . كَانَ مُمَدَّدًا
عَلَى الْمَقْعَدِ ، مُنْقَطِعَ الْأَنْفَاسِ لِكثَرَةِ مَا تَحَدَّثَ ، شَاحِبَ الشَّفَتَيْنِ .
وَكَانَتْ عَلَامَاتُ الْمَوْتِ مُرْسِمَةً عَلَى وَجْهِهِ .

وَعَاوَدَ حَدِيثَهُ مَرَّةً أُخْرَى قَائِلًا : « إِنِّي أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَتَوَلَّى رِعَايَةَ

ابْنِي لِيُو عِنْدَمَا أَمُوتُ . وَقَدْ كَتَبْتُ عَلَى هَذِهِ الْوَرَقَةِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي أَوَدُّ
أَنْ يَعْلَمَهَا ابْنِي . وَعِنْدَمَا يَبْلُغُ الْخَامِسَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، أَفْتَحْ هَذَا
الصُّنْدُوقَ ، وَاجْعَلْهُ يَقْرَأُ مَا بِهِ ، وَسَلِّهِ إِذَا كَانَ عَازِمًا عَلَى أَنْ يُودِّيَ
وَاجِبَهُ . هَلَّا عَمِلْتَ هَذَا مِنْ أَجْلِي ؟ لَقَدْ تَرَكْتُ لَكَ بَصَفَ مَا لَدَيَّ
مِنْ أَمْوَالٍ ، وَسَيُمْكِنُكَ أَنْ تَحْيَا بِهَا وَبِمَا تَكْسِبُهُ مِنْ عَمَلِكَ بِالتَّدْرِيسِ
فِي الْجَامِعَةِ حَيَاةً هَانِئَةً . هَلَّا عَمِلْتَ هَذَا مِنْ أَجْلِي ؟ إِنَّ هَذَا رَجَاءُ رَجُلٍ
مُشْرِفٍ عَلَى الْمَوْتِ . أَتُوسِّلُ إِلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ هَذَا . »

« وَكَيْفَ لِي أَنْ أَرْفُضَ ؟ »

قَالَ وَهُوَ يُمَسِّكُ يَدِي : « وَدَاعًا يَا صَدِيقِي . »

وَلَمَّا خَرَجَ تَسَاءَلْتُ هَلْ كَانَ صَدِيقِي هَذَا مَجْنُونًا ؟ إِنَّ قِصَّتَهُ مِنْ
أَغْرَبِ مَا سَمِعْتُ وَلَكِنَّهُ كَانَ صَدِيقِي ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَوَلَّى أَحَدًا تَرْبِيَةً
الطِّفْلِ الْبَالِغِ مِنَ الْعُمُرِ خَمْسَةَ أَغْوَامٍ . وَمَرَّتْ سَاعَاتٌ لَمْ أُسْتَطِعْ النَّوْمَ
خِلَالَهَا بِسَبَبِ الْمَوْضُوعِ بِرُمَّتِهِ ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَسَاءَلُ هَلْ أَحْسَنْتُ
التَّصَرُّفَ أَمْ لَا ؟

وَيَبْدُو أَنِّي نِمْتُ لِحَظَاتٍ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ أَحَدًا يناديني .
وَصِيحْتُ بِهِ : « مَا بِأَلْكَ يَا جُون ؟ مَاذَا حَدَّثَ ؟ » وَكَانَ شَاحِبَ
الْوَجْهِ ، وَبَدَأَ فِي عَيْنَيْهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ شَيْئًا أَفْزَعَهُ وَأَخَافَهُ .

قَالَ : « لَقَدْ ذَهَبْتُ ، يَا سَيِّدِي ، لِأَوْقِظَ السَّيِّدَ فِنْسِي فَوَجَدْتُهُ
مَيِّتًا . »

وَقَدْ أَمْسَكَ بِيَدِهِ حِصَانًا خَشِيئًا .

وَقَفَ الطِّفْلُ وَنَظَرَ إِلَيَّ ، وَمَدَّ ذِرَاعِيهِ ، وَأَنْطَلَقَ نَحْوِي قَائِلًا : « أَنَا
أُحِبُّكَ ؛ فَبِالْزَّغْمِ مِنْ أَتَيْتُكَ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ ، إِلَّا أَنَّكَ طَيِّبُ الْقَلْبِ . »

وَكَبِرَ الطِّفْلُ لِيُوَ لِيُصْبِحَ صَبِيًّا ، ثُمَّ صَارَ الصَّبِيُّ شَابًا ، وَكَانَ كُلَّمَا
كَبِرَ أَزْدَادَ قُوَّةً وَجَمَالًا ، وَقَدْ التَزَّمْتُ بِوَصِيَّةِ وَالِدِهِ مِنْ حَيْثُ تَعْلِيمِهِ ؛
فَتَعَلَّمُ الْيُونَانِيَّةَ وَالْعَرَبِيَّةَ ، وَتَعَلَّمْتُ أَنَا أَيْضًا الْعَرَبِيَّةَ لِأَكُونَ رَفِيقًا لَهُ .

وَعِنْدَمَا بَلَغَ لِيُوَ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهِ أَلْتَحَقَ بِالْجَامِعَةِ ، ثُمَّ دَرَسَ
الْقَانُونَ . وَلَمْ أَقَابِلْ طَوَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ صُعُوبَةً تُذَكِّرُ مَعَ لِيُوَ سِوَى أَنَّ
كُلَّ أَمْرَأَةٍ رَأَتْهُ كَانَتْ تَقَعُ فِي حُبِّهِ ، مِمَّا تَسَبَّبَ فِي إِيجَادِ بَعْضِ
الْمَشَاكِلِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ شَابًا مُمْتَازًا يُولِي كُلَّ أَهْتِمَامِهِ لِلرِّيَاضَةِ وَالْدِّرَاسَةِ
وَلِأَصْدِقَائِهِ مِنَ الشَّبَابِ أَكْثَرَ مِنَ النِّسَاءِ . وَسَارَتْ الْأُمُورُ عَلَى مَا يُرَامُ .
ثُمَّ حَلَّ عِيدُ مِيلَادِهِ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ .

الفصل الثالث لِيُوَ يَكْبُرُ

أَخَذْتُ الصُّنْدُوقَ الْحَدِيدِيَّ إِلَى لَنْدَنَ ، وَوَضَعْتُهُ فِي مَكَانٍ آمِنٍ .
وَوُفِّقْتُ فِي الْعُثُورِ عَلَى بَيْتٍ جَمِيلٍ فِي مَدِينَةِ كِمْبَرْدُجٍ لِأَسْكُنُهُ أَنَا
وَالطِّفْلُ . وَلَمْ أَكُنْ — بِطَبِيعَةِ الْحَالِ — بِحَاجَةٍ إِلَى أَمْرَأَةٍ فِي الْبَيْتِ
لِتُرْعَى الطِّفْلُ ؛ إِذْ كَانَ كَبِيرًا بِمَا يَكْفِي لِيُرْعَى بَعْضَ أُمُورِ نَفْسِهِ دُونَ
الْحَاجَةِ إِلَى سَيِّدَةٍ . وَلَكِنِّي وَجَدْتُ بَعْدَ صُعُوبَةٍ فَتَى يُدْعَى جُوب .
كَانَ أَكْبَرَ إِخْوَتِهِ الثَّلَاثَةِ عَشَرَ ، وَكَانَتْ لَدَيْهِ خَبْرَةٌ طَوِيلَةٌ فِي رِعَايَةِ إِخْوَتِهِ
وَأُخَوَاتِهِ .

وَأَخِيرًا وَصَلَ الطِّفْلُ لِيُوَ بِصُحْبَةِ سَيِّدَةٍ مُسِنَّةٍ بَكَتَ لِفِرَاقِهِ . وَكَانَ
هَذَا الطِّفْلُ أَجْمَلَ مَنْ رَأَيْتُ مِنَ الْأَطْفَالِ . فَقَدْ كَانَ لَهُ وَجْهُ وَالِدِهِ
وَمَلَامِحُهُ نَفْسُهَا ، وَكَانَ لَهُ أَيْضًا الشَّعْرُ الذَّهَبِيُّ اللَّامِعُ نَفْسُهُ . وَأَتَذَكَّرُ
آلَانَ كَيْفَ كَانَ يَقِفُ أَمَامَ النَّافِذَةِ وَقَدْ سَقَطَ ضَوْءُ الشَّمْسِ عَلَى شَعْرِهِ
عَلَى حَيْنِ كُنْتُ أَجْلِسُ أَنَا عَلَى كُرْسِيِّ ، وَيَقِفُ جُوبُ فِي رُكْنِ الْعُرْفَةِ

كُلُّ مَا رَأَيْتُهُ فِي حَيَاتِي مِنْ مَفَاتِيحَ . لَقَدْ كَانَ عِبَارَةً عَنْ قَضِيبٍ مِنْ
الْفِضَّةِ بِهِ حُرُورٌ فِي حَافَتِهِ ، وَتُبَّتْ بِهِ قَضِيبٌ فِضِّي آخَرُ بِشَكْلِ يَتَقَاطَعُ
مَعَهُ .

تَنَاوَلْتُ الْمِفْتَاحَ الْأَوَّلَ وَفَتَحْتُ بِهِ الصُّنْدُوقَ الْحَدِيدِيَّ ، وَسَاعَدَنِي
لِيُوَ عَلَى رَفْعِ غِطَائِهِ الثَّقِيلِ . وَكَانَ بِدَاخِلِ الصُّنْدُوقِ صُنْدُوقٌ آخَرُ
مَصْنُوعٌ مِنَ الْخَشَبِ الْأَسْوَدِ الثَّقِيلِ ، تَأَكَّلْتُ بَعْضَ أَجْزَائِهِ وَصَارَتْ
هَشَّةً .

وَتَنَاوَلْتُ الْمِفْتَاحَ الثَّانِيَّ وَفَتَحْتُ بِهِ الصُّنْدُوقَ الْأَسْوَدَ ، وَكَانَ
بِدَاخِلِهِ صُنْدُوقٌ فِضِّي يَبْلُغُ طَوْلُهُ ثَلَاثِينَ سَنْتِيْمِتْرًا وَارْتِفَاعُهُ عِشْرِينَ
سَنْتِيْمِتْرًا ، وَعَلَيْهِ أَشْكَالٌ فِرْعَوْنِيَّةٌ حُفِرَتْ فِي الْمَعْدِنِ بِشَكْلِ جَمِيلٍ .
وَأَخَذْتُ الصُّنْدُوقَ وَوَضَعْتُهُ عَلَى الْمِنْضَدَةِ ، وَفَتَحْتُهُ بِالْمِفْتَاحِ
الْفِضِّيِّ الْغَرِيبِ الشَّكْلِ .

كَانَ بِدَاخِلِ هَذَا الصُّنْدُوقِ الْفِضِّيِّ وَرَقَةٌ كُتِبَتْ عَلَيْهَا — بِخَطِّ يَدٍ
صَدِيقِي الْمُتَوَفَّى — الْعِبَارَةُ التَّالِيَةُ : « إِلَى أَبْنِي لِيُو . » ثُمَّ أَخْرَجْتُ لِفَافَةً
مِنْ الْوَرَقِ كُتِبَ عَلَى حَافَتِهَا : « تَرْجَمَةٌ إِنْجِلِيزِيَّةٌ لِلْكِتَابَةِ الْيُونَانِيَّةِ
الْمَوْجُودَةِ عَلَى الْجَرَّةِ » ، وَكَانَ تَحْتَ اللَّفَافَةِ شَيْءٌ لَفٌّ فِي قِطْعَةٍ بِالِيَّةِ
مِنْ الْقِمَاشِ الْأَصْفَرِ الْعَتِيقِ . وَفَضَضْتُ لِفَافَةَ الْقِمَاشِ فَوَجَدْتُ بِدَاخِلِهَا
شَقْفَةً كَبِيرَةً مِنْ جَرَّةٍ مَكْسُورَةٍ ، وَرَأَيْتُ كِتَابَاتٍ كَثِيرَةً مَنْقُوشَةً عَلَى

الفصل الرابع فتح الصندوق الحديدي

قَبْلَ عِيدِ مِيلَادِ لِيُوِ الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ تَوَجَّهْنَا مَعًا إِلَى لَنْدَنَ ،
وَأَحْضَرْنَا الصُّنْدُوقَ الْحَدِيدِيَّ مَعَنَا إِلَى كِمْبَرْدِج . وَقَرَّرْنَا أَنْ نَفْتَحَهُ فِي
صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ لِعِيدِ مِيلَادِ لِيُوِ بَعْدَ الْإِفْطَارِ .

وَبَعْدَ الْإِفْطَارِ أَخْضَرَ جُوبَ الصُّنْدُوقِ إِلَى غُرْفَةِ الْجُلُوسِ ، وَعِنْدَمَا
هَمُّ بِمُغَادَرَةِ الْحُجْرَةِ قُلْتُ لَهُ : « انْتَظِرْ لِحِظَّةٍ يَا جُوب . إِنِّي يَا لِيُوِ
أَوَدُّ أَنْ يَبْقَى جُوبٌ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ مَانِعٌ ؛ إِذْ يَجِبُ أَنْ يَوْجَدَ مَعَنَا
شَخْصٌ ثَالِثٌ لِيَرَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَسِيرُ عَلَى مَا يُرَامُ . »

فَأَجَابَ لِيُوُ : « بِالتَّأَكِيدِ ، لَيَبْقَى مَعَنَا . »

وَتَنَاوَلْتُ الْمَفَاتِيحَ مِنْ غُلْبَةٍ أُحْتَفِظُ فِيهَا بِأَعْلَى مُقْتَنِيَاتِي وَكُنْتُ قَدْ
وَضَعْتُ بِهَا هَذِهِ الْمَفَاتِيحَ الَّتِي أُعْطَانِيهَا وَالِدُ لِيُوِ لَيْلَةَ وَفَاتِهِ .

وَكَانَ لِلصُّنْدُوقِ ثَلَاثَةُ مَفَاتِيحَ : كَانَ أَحَدُهَا مِفْتَاحًا حَدِيثًا عَادِيًّا ،
وَكَانَ الْمِفْتَاحُ الثَّانِي قَدِيمًا جَدًّا ، أَمَّا الْمِفْتَاحُ الثَّالِثُ فَكَانَ يَخْتَلِفُ عَنْ

سَطْحُهَا الدَّاخِلِيَّ ، وَكَانَتْ بِخُطُوطِ أَشْخَاصٍ عَدِيدِينَ وَبِلُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ . أَمَّا سَطْحُهَا الْخَارِجِيُّ فَقَدْ أَمْتَلَأَ بِكِتَابَاتٍ مُتَلَصِّقَةٍ مَكْتُوبَةٍ بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ عَرَفْتُ أَنَّهَا اللَّغَةُ الْيُونَانِيَّةُ . وَظَهَرَ لِي أَيْضًا أَنَّ هَذِهِ الشَّقْفَةَ قَدْ سَبَقَ أَنْ كُسِرَتْ إِلَى جُزْأَيْنِ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَأُعِيدَ لَصْفُهَا .

سَأَلَنِي لِيُو : « هَلْ هُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ خِلَافَ هَذَا ؟ »

وَتَحَسَّسْتُ قَاعَ الصُّنْدُوقِ ، وَأَخْرَجْتُ مِنْهُ شَيْئًا صُلْبًا وَثَقِيلًا مَوْضُوعًا فِي كَيْسٍ صَغِيرٍ ، وَكَانَ خَائِمًا ذَا فَصٍّ بَنِي اللَّوْنِ . وَنُقِشَتْ عَلَى الْفَصِّ كِتَابَاتٌ فِرْعَوْنِيَّةٌ مَعْنَاهَا : « ابْنُ رَع » ، وَ « رَع » هَذَا هُوَ إِلَهُ الشَّمْسِ . وَوَجَدْتُ فِي الْكَيْسِ نَفْسَهُ صُورَةً لِيُو الْيُونَانِيَّةِ ،

وَقَدْ كُتِبَ عَلَى ظَهْرِ الصُّورَةِ « زَوْجَتِي الْعَزِيزَةُ » .

قُلْتُ لَهُ : « هَذَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ » .

وَوَضَعَ لِيُو صُورَةَ وَالِدَتِهِ جَانِبًا وَقَالَ : « فَلْتَقْرَأِ الْخِطَابَ » . وَكَانَ نَصُّهُ كَالآتِي :

« ابْنِي الْعَزِيزُ لِيُو :

« عِنْدَمَا تَفْتَحُ هَذَا الْخِطَابَ سَتَكُونُ قَدْ بَلَغْتَ الْخَامِسَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِكَ ، وَسَأَكُونُ قَدْ تُوَفِّيتُ مِنْ زَمَنِ بَعِيدٍ ، وَلَسَيَنِي كُلُّ الَّذِينَ كَانُوا يَعْرِفُونَنِي .

« وَسَيَكُونُ هُوَ لِي قَدْ حَكَى لَكَ بَعْضَ تَارِيخِ أُسْرَتِكَ . وَتَسْتَجِدُّ فِي هَذَا الصُّنْدُوقِ قِصَّةَ غَرِيبَةٍ كَتَبْتُهَا أَمِيرَةٌ عَلَى شَقْفَةِ جَرَّةٍ مُنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ . لَقَدْ حَكَى لِي وَالِدِي هَذِهِ الْقِصَّةَ عِنْدَمَا كُنْتُ فِي الثَّلَاثَةِ عَشْرَةِ مِنْ عُمْرِي . وَشَرَعْتُ عِنْدئِذٍ فِي مُحَاوَلَةِ التَّوَصُّلِ إِلَى مَدَى صِحَّةِ هَذِهِ الرَّوَايَةِ ، فَوَصَلْتُ إِلَى سَاحِلِ إِفْرِيقِيَّةِ شِمَالِ مَصَبِّ نَهْرِ زَامْبِيزِي ، وَهِيَ مَنَاطِقَةٌ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْقَلِيلُ ، وَلَمْ يَزُرْهَا أَحَدٌ تَقْرِيْبًا . وَهُنَاكَ ثَلَاثُ صَخْرَتَيْنِ عَلَى شَكْلِ رَأْسِ رَجُلٍ إِفْرِيقِيٍّ ، وَقَدْ وَصَفْتُ ذَلِكَ الثَّلَاثُ الْكِتَابَاتِ الْمُنْقُوشَةَ عَلَى شَقْفَةِ الْجَرَّةِ . وَرَسَوْتُ هُنَاكَ حَيْثُ التَّقَيُّتُ رَجُلًا طَرَدَهُ أَهْلُهُ بِسَبَبِ جُرْمِ ارْتِكَابِهِ . وَقَدْ قَالَ لِي الرَّجُلُ إِنَّهُ يَوْجَدُ دَاخِلَ هَذِهِ الْمَنَاطِقَةِ بَلَدًا بِهِ جِبَالٌ تُشَبِّهُ الْكُوُوسَ فِي شَكْلِهَا ، وَبِهَا الْعَدِيدُ مِنَ الْكَهُوفِ أَهَائِلَةٍ . وَتُحِيطُ بِهَذَا الْبَلَدِ مَنَاطِقٌ شَاسِعَةٌ مِنَ الْأَرَاضِي



الوَاطِئَةِ الَّتِي تَبْلُعُ كُلَّ مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَعْبُرَهَا ، مَا لَمْ يَعْرِفِ الدُّرُوبَ
الصَّحِيحَةَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَسْلُكَهَا . وَيَعِيشُ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ وَالْكَهُوفِ
أَنَاسٌ يَتَكَلَّمُونَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ ، وَتَحْكُمُهُمْ أَمْرَاءٌ جَمِيلَةٌ بَيَاضُ نَادِرًا مَا
يَرَوْنَهَا . وَلِهَذِهِ الْمَرْأَةِ سُلْطَانٌ عَلَى كُلِّ مَا فِي هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ مِنْ أَحْيَاءٍ
وَأَمْوَاتٍ .

« وَكَانَ الرَّجُلُ الَّذِي أَخْبَرَنِي بِكُلِّ هَذَا مَرِيضًا ، وَقَدْ تُوُفِّي بَعْدَ
يَوْمَيْنِ ، وَمَرَضْتُ أَنَا أَيْضًا ؛ لِذَلِكَ اضْطُرَرْتُ إِلَى الْرُّجُوعِ . وَفِي طَرِيقِ
الْعُودَةِ تَوَقَّفْتُ فِي الْيُونَانِ ، وَهُنَاكَ التَّقَيْتُ بِوَالِدَتِكَ .

« إِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ الْقِصَّةَ الْمَكْتُوبَةَ عَلَى الشَّقَقَةِ قِصَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ ، كَمَا
أَعْتَقِدُ أَنَّ هُنَاكَ طَرِيقَةً أَوْ أُخْرَى تُجْعَلُ النَّاسُ يَخْلُدُونَ ، أَيْ يَعْيشُونَ
إِلَى الْأَبَدِ .

« وَقَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى ذَهْنِكَ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ سِوَى خَيَالَاتٍ مَحْمُومَةٍ
لِرَجُلٍ مَرِيضٍ . وَحَتَّى إِنْ صَدَّقَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ فَإِنَّكَ قَدْ تَرَى أَنَّهُ مِنَ
الْحِكْمَةِ أَلَّا تَفْعَلَ شَيْئًا إِزَاءَ تِلْكَ الْقَوَى . فَإِذَا كَانَ هَذَا رَأْيُكَ فَعَلَيْكَ
عِنْدَيْكَ أَنْ تُمَزَّقَ الْأَوْرَاقُ وَتُخَلَّصَ مِنَ الشَّقَقَةِ ذَاتِ النُّقُوشِ ،
وَلَا تُزْعِجَ أَبْنَاءَكَ وَأَحْفَادَكَ بَعْدَ ذَلِكَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْخُرْقَاءِ الْخَطِيرةِ
الَّتِي تُرْجِعُ إِلَى الْمَاضِي السَّحِيقِ .

« وَلَعَلَّكَ أَيْضًا تَوَدُّ — كَمَا وَدَدْتُ أَنَا — أَنْ تُعْرِفَ مَدَى صِحَّةِ

هَذِهِ الرِّوَايَةِ ، وَقَدْ تَعَقَّدُ الْعَزَمَ عَلَى أَنْ تَتَوَجَّهَ بِنَفْسِكَ لِتَتَحَقَّقَ مِنْهَا .
إِنَّ لَكَ حُرِّيَّةَ الْإِخْتِيَارِ . وَدَاعًا . »

سَأَلَنِي لِيُو : « حَسَنٌ ، مَا رَأَيْتُكَ يَا هُولِي ؟ »

أَجَبْتُهُ : « أَعْتَقِدُ أَنَّ وَالِدَكَ كَانَ مَجْنُونًا . وَكَانَ هَذَا آعْتِقَادِي مُنْذُ
عِشْرِينَ عَامًا ، عِنْدَمَا دَخَلَ غُرْفَتِي حَامِلًا هَذَا الصُّدُوقَ . »
قَالَ جُوب : « مُنْتَهَى الْجُنُونِ . »

قَالَ لِيُو : « حَسَنٌ ، فَلْتَرِ مَا كُتِبَ عَلَى الْجَرَّةِ . »

وَفَحَصَ مَا كُتِبَ مِنْهُ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ وَقَرَأَ : « أَنَا أَمِينَارْتَاس ، سَلِيلَةُ
الْفَرَاعِنَةِ : أَنَا زَوْجَةُ كَالِيكَرَاتِيس . وَأَكْتُبُ هَذَا لِأَبْنِي الصَّغِيرِ الَّذِي
أَسَمَيْتُهُ « الْمُنْتَقِم » وَأَكْتُبُ هَذَا لِأَنِّي مُشْرِفَةٌ عَلَى الْمَوْتِ . بَعْدَ أَنْ
فَرَرْتُ مِنْ مِصْرَ مَعَ وَالِدِكَ عَلَى ظَهْرِ سَفِينَةٍ وَصَلْنَا إِلَى سَاحِلِ إِفْرِيقِيَّةِ
الشَّرْقِيِّ ، وَهُنَاكَ قَدَفَتْ الْعَاصِفَةُ بِسُفِينِنَا إِلَى الشَّاطِئِ قُرْبَ صَخْرَةٍ عَلَى
شَكْلِ رَأْسِ رَجُلٍ إِفْرِيقِي . وَقَدْ هَلَكَ كُلُّ الرِّجَالِ الَّذِينَ كَانُوا
بِالسَّفِينَةِ ، وَلَكِنْ بَعْضُ الرِّجَالِ الْبُدَائِيَّينَ حَمَلُونَا فِي رِحْلَةٍ طَالَتْ عَشْرَةَ
أَيَّامٍ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى جَبَلٍ حَيْثُ كَانَتْ تَقُومُ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَقَدْ دُمِّرَتْ
مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ . وَكَانَ بِالْجَبَلِ كُهُوفٌ هَائِلَةٌ . وَقَدْ أَصْطَحَبْنَا هَؤُلَاءِ
الرِّجَالِ إِلَى مَلِكَةٍ كَانَتْ رَعَايَاهَا يَضَعُونَ الْقُدُورَ الْمُحَمَّمَةَ فَوْقَ رُؤُوسِ
مَنْ يَفِدُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْغُرَبَاءِ .

« إِنَّ هَذِهِ الْمَلِكَةَ سَاحِرَةٌ ، وَتَعْرِفُ كُلَّ أَسْرَارِ الْحَيَاةِ وَالْجَمَالِ ؛
كَمَا أَنَّهَا خَالِدَةٌ لَا تَمُوتُ . وَقَدْ أَحَبَّتِ الْمَلِكَةَ كَالِيKRَاتِسَ وَأَرَادَتْ أَنْ
تَقْتُلَنِي . وَنَقَلْتُنَا إِلَى كَهْفٍ هَائِلٍ تَحْتَ الْأَرْضِ حَيْثُ نَارُ الْحَيَاةِ .
وَدَخَلَتِ الْمَلِكَةُ وَسْطَ النَّارِ وَخَرَجَتْ مِنْهَا سَلِيمَةً وَأَكْثَرَ جَمَالًا مِمَّا
كَانَتْ ، ثُمَّ قَالَتْ لِكَالِيKRَاتِسَ : ' أَقْتُلْ زَوْجَكَ وَهَبْ نَفْسَكَ لِي ،
فَأَجْعَلَكَ مُخَلَّدًا مِثْلِي ، وَتَسْتَعِيشُ إِلَى الْأَبَدِ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ .

« وَعِنْدَيْدِ غَضِبَتِ الْمَلِكَةُ وَقَتَلَتْهُ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقْتُلَنِي
لَأَنْنِي أَعْرِفُ أَسْرَارَ سِحْرِ قَوْمِي ؛ لِذَا أُرْسَلْتُنِي إِلَى مَصَبِّ النَّهْرِ الْعَظِيمِ
حَيْثُ تَصِلُ السُّفُنُ ، وَمِنْ هُنَاكَ وَصَلْتُ الْيُونَانَ . وَآلَانَ أَطْلُبُ مِنْكَ
يَا بُنَيَّ — الْمُتَتَقِمَ — أَنْ تَجِدَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ، وَأَنْ تَكْشِفَ سِرَّ الْحَيَاةِ ،
ثُمَّ تَقْتُلَهَا لِأَنَّهَا قَتَلَتْ وَالِدَكَ كَالِيKRَاتِسَ . وَإِذَا فَشِلْتَ فِي ذَلِكَ فَاجْعَلْ
أَبْنَكَ يَقُومَ بِهَذَا أَوْ أَحْفَادَكَ أَوْ أَحْفَادَ أَحْفَادِكَ ، حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمٌ يَكُونُ
لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الشَّجَاعَةِ مَا يَكْفِي لِيَقُومَ بِهَذَا الْوَاجِبِ . »

قُلْتُ لِّلْيُو : « حَسَنٌ يَا لِيُو ، عَلَيْكَ أَنْ تُقَرَّرَ مَا سَتَفْعَلُهُ فِي هَذَا
الشَّأْنِ . إِنَّنِي أَعْرِفُ أَنَّ بِلَكَ الْجَرَّةَ وَمَا عَلَيْهَا مِنْ كِتَابَاتٍ حَقِيقِيَّةٍ ،
إِنَّهَا بِالْيُونَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ . وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَيْضًا أَنَّ مَا عَاتَتْهُ أَمِينَارَتَاسَ مِنْ
صِعَابٍ بِالإِضَافَةِ إِلَى فَقْدَانِهَا زَوْجَهَا قَدْ دَفَعَهَا إِلَى الْجُنُونِ فَكَتَبْتُ
هَذَا . إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي كَامِلِ قُوَاهَا الْعَقْلِيَّةِ عِنْدَمَا كَتَبَتْهُ . مَا رَأَيْتُكَ
يَا جُوب ؟ »

فَأَجَابَ جُوب : « لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ هُنَاكَ كَلِمَةً وَاحِدَةً صَحِيحَةً فِي هَذِهِ
الرَّوَايَةِ يَا سَيِّدِي . وَأَمْلُ أَلَّا يُفْجِمَ السَّيِّدُ لِيُو نَفْسَهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ
الْأُمُورِ ؛ إِذْ لَا جَدْوَى مِنْ وَرَائِهَا . »

فَقَالَ لِيُو فِي هُدُوءٍ : « لَعَلَّكُمَا عَلَى حَقٍّ . وَلَكِنَّ رَأْيِي أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ
أَضَعَ حَدًّا لِهَذِهِ الرَّوَايَةِ . » وَتَوَقَّفَ عَنِ الْكَلَامِ ثُمَّ قَالَ : « إِنْ لَمْ تَأْتِيا
مَعِي ، فَسَأَذْهَبُ وَخَدِي . »

قُلْتُ : « حَسَنٌ ، أَنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى إِجَازَةٍ ، وَلَا بُدَّ أَنَّ سَتُمَارِسُ
خِلَالَهَا الرَّمَايَةَ . »

وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ كُنَّا فِي طَرِيقِنَا إِلَى زَنْجِبَارِ .

قال مُحَمَّدٌ : « إِنَّهُ أَسَدٌ ! »

قُلْتُ : « لَقَدْ أُبْلَغَنِي الرَّبَّانُ أَنَّنَا سَتَمَكُنُ غَدًا فِي الْعَاشِرَةِ تَقْرِيًّا مِنْ
أَنْ نَرَى الثَّلَّ الَّذِي عَلَى شَكْلِ رَأْسِ رَجُلٍ . »

قال لُيُو : « كُنْتُ أَتَدَرَّبُ عَلَى الْحَدِيثِ مَعَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ . وَعَرَفْتُ أَنَّهُ
كَانَ يَعْمَلُ بِالتَّجَارَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ طَوَالَ حَيَاتِهِ . وَسَأَلْتُهُ
إِذَا كَانَ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْمُتَهَدِّمَةِ وَالْكَهُوفِ . »

سَأَلْتُ لُيُو : « هَلْ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْهَا ؟ »

فَأَجَابَ : « لَا ، وَلَكِنَّهُ قَالَ لِي إِنَّ أَلْبِلَادَ الْوَارِقَةِ عَلَى أَمْتِدَادِ السَّاحِلِ
مُنْخَفِضَةٌ وَتَغْمُرُهَا الْمِيَاهُ ، وَلَا تَصْلُحُ لِلْحَيَاةِ ، وَتَعِجُّ بِالْأَفَاعِي . »

وَسَأَلَ لُيُو مُحَمَّدًا مُشِيرًا إِلَى كُتْلَةٍ سَوْدَاءَ فِي السَّمَاءِ : « مَا هَذِهِ
السَّحَابَةُ ؟ »

فَأَجَابَ : « أَتَعْنِي هَذِهِ ؟ إِنَّهَا عَاصِفَةٌ ، وَلَكِنَّهَا مُجَرَّدُ عَاصِفَةٍ
صَغِيرَةٍ سَتَمُرُّ مِنْ جَانِبِنَا . »

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ قَدِمَ جُوبَ نَاحِيَّتِنَا وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُ وَجْهِهِ إِلَى
السُّمْرَةِ ، وَظَهَرَتْ مَلَامِحُهُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ وَاضِحَةً ، قَالَ : « لَقَدْ وَضَعْتُ
يَا سَيِّدِي كُلَّ الْمُؤْنِ وَالْبَنَادِقِ فِي الْقَارِبِ خَلْفَ السَّفِينَةِ حَتَّى تَكُونَ
مُسْتَعِدِّينَ لِرِحْلَتِنَا فِي النَّهْرِ . وَيَقُولُ الرَّبَّانُ إِنَّنَا سَنَصِلُ مُبَكِّرِينَ غَدًا ،

الفصل الخامس عاصفة بالبحر

حَصَلْنَا عَلَى دَاوَةٍ ، وَهِيَ سَفِينَةٌ عَرَبِيَّةٌ شِرَاعِيَّةٌ ، رَبَطْنَا خَلْفَهَا قَارِبًا
أَخْضَرْنَاهُ مِنْ إِنْجِلْتِرَا . وَكَانَ الْقَارِبُ مَزُودًا بِخَزَانَاتِ هَوَاءٍ رُكِبَتْ بِهِ
لِتَبْقَى الْقَارِبُ طَافِيًا إِذَا أَمْتَلَأَ بِالْمَاءِ ، وَكَانَتْ بِهِ أَيْضًا صِنَادِيقُ لِلطَّعَامِ
وَالْمُؤْنِ .

أُبْحَرْنَا جَنُوبًا عَلَى أَمْتِدَادِ السَّاحِلِ الشَّرْقِيِّ لِإِفْرِيقِيَّةَ ، وَكَانَتْ الْيَابِسَةُ
عَلَى يَمِينِنَا . وَهَبَتْ رِيَاخٌ لَطِيفَةٌ فَمَلَأَتْ الشَّرَاعَ ، وَكَانَ الْبَحْرُ هَادِئًا ،
وَكَانَتْ مِيَاهُهُ تَرْتِطُ بِجَانِبِي السَّفِينَةِ فَتُحْدِثُ صَوْتًا أَشْبَهَ بِمَوْسِيقَى
هَادِيَةٍ حَالِمَةٍ . أَمَّا الْقَمَرُ فَقَدْ كَانَ يُطِلُّ عَلَيْنَا فِي لَيْلٍ سَاجٍ كُنَّا نَسْمَعُ
فِيهِ أَرْقَ الْأَصْوَاتِ وَأَكْثَرَهَا خُفَوْنَا .

وَكَانَ يُمَسِّكُ بِالْدَفَّةِ رَجُلٌ عَرَبِيٌّ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ . وَفَجْأَةً رَفَعَ يَدَهُ
قَائِلًا : « أَنْصِتُوا ! »

وَسَمِعْنَا صَوْتًا عَمِيقًا يَأْتِينَا مِنْ بَعِيدٍ .

وَلَكِنِّي لَا أَتَى يَا سَيِّدِي بِهِؤَلَاءِ الرِّجَالِ ؛ لِذَا فَإِنِّي سَأَقْضِي لَيْلَتِي فِي الْقَارِبِ لَوْ سَمَحْتَ لِي . »

وَوَافَقْتُ جُوبَ عَلَى اقْتِرَاحِهِ ، وَكَانَ الْوَقْتُ مُتَأَخِّرًا ؛ لِذَا فَقَدْ أَخْلَدْتُ إِلَى النَّوْمِ أَنَا وَلِيُو .

انْتَبَهْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى صَوْتِ الرِّيحِ وَعَوِيلِهَا الْمُخِيفِ ، وَصِيحَاتِ الْفَرَعِ الَّتِي أَطْلَقَهَا الرِّجَالُ فِي السَّفِينَةِ ، فَانْتَفَضْتُ وَاقِفًا وَأَمْسَكْتُ بِحَبْلِ . كَانَتْ السَّمَاءُ قَدْ أَسْوَدَتْ مِنْ فَوْقِنَا ، وَلَكِنَّ الْقَمَرَ كَانَ مُشْرِقًا ، فَرَأَيْتُ فِي ضَوْئِهِ مَوْجَةً كَبِيرَةً يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهَا سَبْعَةَ أمتارٍ تَنْدَفِعُ نَحُونًا ، وَقَدْ غَلَاها الرِّبْدُ الْأَبْيَضُ . وَوَصَلَتِ الْمَوْجَةُ وَغَمَرَتْنَا ، وَاجْتَاخَتْنَا حَتَّى صَبَرْنَا جَمِيعًا فِي طَيَّاتِهَا ، ثُمَّ مَرَّتْ .

وَمَا إِنَّ نَهَضْتُ مِنْ وَسْطِ الْمِيَاهِ حَتَّى رَأَيْتُ شِرَاعَ السَّفِينَةِ وَقَدْ طَوَحَتْهُ الرِّيحُ ، وَحَمَلَتْهُ كَمَا تَحْمِلُ سَحَابَةٌ صَغِيرَةٌ . وَسَمِعْتُ جُوبَ يَصِيحُ : « أَنَا هُنَا يَا سَيِّدِي ! ثَعَالِ إِلَى هُنَا ، إِلَى الْقَارِبِ ! »

وَكَانَتْ السَّفِينَةُ قَدْ غَمَرَتْهَا الْمِيَاهُ ، وَرَأَيْتُ مُحَمَّدًا يَقْفِزُ إِلَى الْقَارِبِ ، فَقَفَزْتُ خَلْفَهُ ، وَجَذَبْنِي جُوبَ مِنْ ذِرَاعِي . وَقَطَعَ مُحَمَّدٌ الْحَبْلَ الَّذِي كَانَ يَرْتَبُطُ الْقَارِبَ بِالسَّفِينَةِ الَّتِي كَانَتْ تَغْوِصُ فِي أَعْمَاقِ الْمِيَاهِ .

صِيحْتُ : « وَلَكِنْ أَيْنَ لِيُو ؟ لِيُو ! لِيُو ! »

فَأَجَابَ جُوبَ : « لَقَدْ هَلَكَ يَا سَيِّدِي . انْظُرْ ! مَوْجَةٌ ثَانِيَةٌ قَادِمَةٌ نَحُونًا . » اِخْتَجَبَ الْقَمَرُ تَقْرِيْبًا خَلْفَ السُّحُبِ ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ عَلَى ضَوْئِهِ أَخَافَتِ الْمَوْجَةُ الْقَادِمَةَ نَحُونًا ، وَكَانَ فِي وَسْطِهَا جِسْمٌ أَسْوَدَ اللَّوْنِ . وَغَمَرَتْنَا الْمَوْجَةُ ، فَمَلَأَتْ الْقَارِبَ بِالْمِيَاهِ ، وَلَكِنَّ خَزَانَاتِ الْهَوَاءِ أَبْقَتْهُ طَافِيًا . أَمَّا الْجِسْمُ الْأَسْوَدُ فَقَدْ انْدَفَعَ نَاجِحَتِي مُبَاشَرَةً ، فَزَفَعْتُ ذِرَاعِي لِأَخِيْمِي نَفْسِي مِنْهُ ، وَلَكِنَّ يَدِي اصْطَلَمَتْ بِذِرَاعِ أُخْرَى ، ثُمَّ أَمْسَكْتُ بِي يَدٍ . وَرَغِمَ أَنْي أَمْتَعُ بِقُوَّةِ جَسَدِيَّةٍ هَابِلَةٍ ، وَكُنْتُ أَمْسِكُ بِجَانِبِ الْقَارِبِ ، إِلَّا أَنِّي شَعَرْتُ أَنَّ ذِرَاعِي كَذَتْ تَنْخَلِجُ مِنْ جِسْمِي .

وَلَوْ كَانَ انْدِفَاعُ الْمِيَاهِ طَالًا أَكْثَرَ مِمَّا حَدَثَ لَتَعَيَّنَ عَلَيَّ أَنَّ أَتْرَكَ الْقَارِبَ ، وَلَكِنَّ الْمَوْجَةَ مَرَّتْ بِسَلَامٍ . وَعِنْدَمَا سَقَطَ الشَّعَاعُ الْأَخِيرُ لِلْقَمَرِ — قَبْلَ أَنْ يَطْوِيَهُ الظُّلَامُ — عَلَى وَجْهِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي كُنْتُ مُمَسِّكًا بِهِ تَبَيَّنْتُ أَنَّهُ وَجْهُ لِيُو ، وَقَدْ حَمَلَتْهُ إِلَى الْمَوْجَةِ الثَّانِيَةِ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا ، لَمْ أَكُنْ أَدْرِي .

انْهَمَكَ جُوبَ وَمُحَمَّدٌ فِي نَزْحِ الْمِيَاهِ مِنَ الْقَارِبِ ، فَسَارَعْتُ إِلَى مُعَاوَنَتِهِمَا . وَعَمِلْنَا مَعًا مِنْ أَجْلِ الْإِبْقَاءِ عَلَى حَيَاتِنَا . وَكَانَ صَوْتُ ارْتِطَامِ الْمَوْجِ بِالصُّخُورِ يَغْلُو عَلَى صَوْتِ الرِّيحِ وَالْمَطَرِ . وَبَزَغَ الْقَمَرُ مَرَّةً أُخْرَى ، فَشَاهَدْتُ عَلَى بُعْدِ كِيلُومِترٍ تَقْرِيْبًا خَطًّا أَبْيَضَ مِنَ الْمِيَاهِ الْمُتَكَسِّرَةِ ، يَلِيهِ خَطٌّ أَبْيَضٌ آخَرُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي زَادَ فِيهِ الصَّوْتُ

وَرَفَعْنَا ثُمَّ أَلَقْنَا بِنَا إِلَى مِثْقَالِ مِائَةِ أَوْسُقٍ .

وَلَكِنْ الْقَارِبَ كَانَ قَدْ أَمْتَلَأَ بِالْمِيَاهِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَكَانَ الْخَطُّ
الْأَبْيَضُ الثَّانِي يَبْعُدُ عَنَّا كِيلَوْمَتْرًا وَاحِدًا ، وَكَانَتْ الْعَاصِفَةُ أَقْلَ جِدَّةً .

وَنَظَرْتُ إِلَى لِيُو ، فَوَجَدْتُ عَيْنَيْهِ مَفْتُوحَتَيْنِ ، وَكَانَتْ الْمِيَاهُ فِي تِلْكَ
اللَّحْظَةِ قَدْ سَافَتْنا إِلَى خَطِّ الصُّخُورِ الثَّانِي . وَأَطْلَقَ جُوبَ صَرَخَةٍ وَأَخَذَ
مُحَمَّدٌ يَدْعُو اللَّهَ ؛ فَقَدْ كَانَتْ الْمِيَاهُ تَتَفَادَفُنَا إِلَى الْأَمَامِ تَارَةً وَإِلَى الْخَلْفِ
تَارَةً أُخْرَى . وَبَعْدَ خَمْسِ دَقَائِقَ انْطَلَقَ بِنَا الْقَارِبُ يَدْفَعُنَا إِلَى الْأَمَامِ
تِيَارُ الْمِيَاهِ ، بَعْدَ أَنْ نَالَ مِنَّا التَّعَبُ حَتَّى إِنَّا لَمْ نَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكَةِ
أَوْ تَسْيِيرِ الْقَارِبِ .

انْتَهَتْ الْعَاصِفَةُ تَقْرِيْبًا ، فَصَفَتِ السَّمَاءُ ، وَأَنْسَكَبَ ضَوْءُ الْقَمَرِ
الْأَبْيَضُ لِيَغْمُرَ سَطْحَ الْبَحْرِ وَالْأَرْضِ ، وَتَطَلَّعْتُ إِلَى الصُّخْرَةِ الْهَائِلَةِ
الْقَائِمَةِ أَمَامَنَا فِي الْبَحْرِ ، وَقَدْ أَضَاءَهَا مِنَ الْخَلْفِ نَوْرُ الْقَمَرِ ، فَبَدَتْ
سَوْدَاءَ مِنَ الْأَمَامِ .

وَكَانَتْ الصُّخْرَةُ عَلَى شَكْلِ رَأْسِ رَجُلٍ إِفْرِيْقِي .



الْعَمِيقُ وَضُوحًا . صَحْتُ قَائِلًا لِمُحَمَّدٍ : « قَدْ الْقَارِبَ ، فَعَلَيْنَا أَنْ
نُجْتَازَ الْعَاصِفَةَ . »

وَجَلَسْتُ أَنَا وَجُوبُ مُسْتَعِدَّيْنِ لِلتَّجْدِيفِ ، وَدَفَعْنَا الرِّيَّاحُ وَالْمِيَاهُ
إِلَى الْأَمَامِ .

وَفِي مَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ بَدَا لَنَا الْخَطُّ الْأَبْيَضُ أَقْلَ سُمْكًا ، فَأَشْرْتُ إِلَيْهِ
قَائِلًا لِمُحَمَّدٍ : « وَجْهَ الْقَارِبِ إِلَى هُنَاكَ . » فَرَأَيْتُهُ يَبْدُلُ قُصَارَى جَهْدِهِ
لِتَغْيِيرِ وَجْهَةِ الْقَارِبِ . وَقُمْتُ أَنَا وَجُوبُ بِالتَّجْدِيفِ بِكُلِّ مَا أَوْتِنَا مِنْ
قُوَّةٍ ، حَتَّى صِرْنَا فِي مُنْتَصَفِ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ . وَارْتَفَعَتِ الْمِيَاهُ
الْمُتَكَسِّرَةُ حَتَّى عَلَتْ رُؤُوسَنَا ، ثُمَّ جَاءَتْ مَوْجَةٌ هَائِلَةٌ مِنْ خَلْفِنَا ،

الفصل السادس

جواب حقيقة في القصة

أخيراً أشرق النهار ، وكنت أجلس في القارب أنصت إلى تفرق المياه ، وأتطلع إلى التل الذي يرتفع وسط المياه . ورأيت تلك الصخرة ذات الشكل الغريب وقد توجتها أشعة الشمس . ولم يعد هناك شك في وجودها : فها هو ذا الأنف ، وها هي ذي العينان ، وها هو ذا الفم . إنها في الحقيقة على شكل رأس إنسان ، ولم أستطع قط أن أكتشف ما إذا كانت يد الإنسان هي التي صنعتها ، أم أنها من صنع الطبيعة ، ولكن ها هي ذي الصخرة تنصب أمامنا لتبدو وكأنها تطل على البحر تماماً كما رأينا أمينارتاس الأميرة المصرية منذ ألفي عام .

سألت جوب : « ما رأيك في هذا ؟ »

وكان جوب قد رآها لأول مرة ، فقال : « يا إلهي ! »

وأيقظت ليو الذي سألني : « أين السفينة ؟ ما الذي حدث ؟ »

فقلت له : « لقد فقدنا السفينة ؟ وقد هلك معها كل من كان

عليها ، ولم يبق سوانا نحن الأربعة . أما أنت فقد نجوت بأعجوبة . »

فقطع ليو إلي قائلاً : « يا للعجب ! ها هو ذا الرأس ، ها هي ذي الصخرة التي على شكل رأس إنسان إفريقي . إذا فالقصة كلها حقيقة ! »

فقلت له : « أنا لا أوافقك على ذلك ، فنحن نعرف بوجود هذا الرأس هنا ، فقد رآه والدك . ولكن لعله ليس الرأس نفسه الذي ورد ذكره في تلك الكتابات . وحتى إذا كان الرأس نفسه ، فإن هذا لا يثبت صحة بقية القصة .

فقال ليو : « إنك شخص لا يصدق شيئاً . »

قلت له : « نعم ، وآلان لعلك قد لاحظت أن التيار قد ساق القارب إلى شط رملي عند مصب النهر . وعلى إذا أن نواصل التجديف حتى نجد مكاناً صالحاً ونرسو فيه . »

وكانت تمتد أمامنا ، لمسافة أكثر من كيلومتر ، ذراع طويلة من اليابسة ترتفع عن مستوى بقية الأرض ، ولها جانبان منحدران . وسرعان ما وصلنا إليها ، وهناك نزلنا إلى اليابسة .

وبعد ذلك أغتسلنا ، ونشرنا ملابسنا لتجف . وأخرج جوب بعض الطعام من القارب ، وتناولنا إبطارنا . ثم نظرنا حولنا ، فتبيننا أن قطعة الأرض تلك تبلغ نحو خمسمئة متر طولاً ومئة متر عرضاً ، ويرتفع

مُسْتَوَاهَا عَنِ الْأَرْضِ الْمُخْفَضَةِ خَلْفَهَا بِخَوْ ثَمَانِيَةِ أَمْتَارٍ .

قَالَ لِيُو : « إِنَّ هَذَا الْمَكَانَ قَدْ بَنَاهُ الْإِنْسَانُ ، وَكَانَتْ السُّفُنُ الْكَبِيرَةُ تَأْتِي إِلَى هُنَا . »

فَقُلْتُ لَهُ : « لَا تَكُنْ غَيِّبًا ، مَنْ الَّذِي يَبْنِي مِثْلَ هَذَا الْمَكَانِ وَسَطَ هَذِهِ الْأَرْضِ الْوَاطِئَةِ ، وَفِي بِلَادٍ لَا يَعِيشُ بِهَا سِوَى أَنْاسٍ بُدَائِيَّيْنِ — هَذَا لَوْ كَانَ يَعِيشُ بِهَا أَحَدٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ . »

فَقَالَ لِيُو : « لَعَلَّهَا لَمْ تَكُنْ بِهَذَا الشَّكْلِ مِنْ قَبْلُ ، لَعَلَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الْوَاطِئَةَ كَانَتْ يَوْمًا جَافَةً ، وَلَعَلَّهَا كَانَ يَسْكُنُهَا الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ . انْظُرْ إِلَى هُنَاكَ . »

وَكَانَ لِيُو يُشِيرُ إِلَى شَجَرَةٍ أَطَاخَتْ بِهَا الْعَاصِفَةُ ، وَقَدْ خَلَفَتْ جُذُورُهَا الْمُقْتَلَعَةُ حُفْرَةً كَبِيرَةً فِي الْأَرْضِ .

وَسَأَلَ لِيُو : « أَلَيْسَ هَذَا الَّذِي نَرَاهُ فِي قَاعِ هَذِهِ الْحُفْرَةِ بِنَاءً حَجَرِيًّا ؟ »

وَهَبَطْتُ إِلَى قَاعِ الْحُفْرَةِ ، فَوَجَدْتُ حِجَارَةً ضَخْمَةً رُصَّتْ مَعًا بِعِنَانِيَّةٍ ، وَكَانَ وَجْهُ الْحِجَارَةِ مُسَطَّحًا ، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَبَيَّنَ عَلَيْهَا عِلَامَاتٍ تُشِيرُ إِلَى طَرِيقَةِ قَطْعِهَا . وَحَفَرْتُ الْأَرْضَ بِيَدَيَّ ؛ فَوَجَدْتُ خَلْقَةً حَدِيدِيَّةً كَبِيرَةً لِلْغَايَةِ يَبْلُغُ قَطْرُهَا نَحْوَ ثَلَاثِينَ سَنْتِمِترًا وَسَمَكُهَا نَحْوَ ثَمَانِيَةِ سَنْتِمِترَاتٍ ، فَقَالَ لِيُو الَّذِي كَانَ يُرَاقِبُنِي : « يَبْدُو أَنَّ سَفُنًا

كَبِيرَةٌ كَانَتْ تَجِيءُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ . »

فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُجِيبَهُ ، وَلَكِنْ لَعَلَّ هَذِهِ الْأَرْضَ كَانَتْ يَوْمًا أَرْضًا يَابِسَةً وَقَامَتْ عَلَيْهَا مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ . وَاسْتَطَرَدَّ لِيُو قَائِلًا : « لَقَدْ بَدَأَ يَتَضَحُّ لَنَا مِنَ الشَّوَاهِدِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ عَلَى جَانِبٍ مِنَ الصَّدَقِ ، أَلَا يَبْدُو ذَلِكَ وَاضِحًا ؟ »

وَنَظَرْتُ إِلَى تِلْكَ الْأَرْضِ الْوَاطِئَةِ الَّتِي تَمْتَدُّ عَلَى مَدَى الْبَصَرِ ، وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ آزَدَادَتْ حَرَارَتُهَا فَكَسَتْ الْأَرْضَ بِطَبَقَةٍ مِنَ الْبُخَارِ . قُلْتُ لِلْيُو : « هُنَاكَ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ تَبْدُو جَلِيلَةً أَمَامِي . أَوَّلُهَا أَنَّهُ مِنْ الْوَاضِحِ أَنَّنَا لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَجْتَازَ هَذِهِ الْأَرْضَ . » وَأَشَرْتُ إِلَى تِلْكَ الْمِسَاحَةِ الشَّاسِعَةِ الَّتِي كَانَتْ تَمْتَدُّ أَمَامَنَا .

« أَمَّا الشَّيْءُ الثَّانِي الَّذِي اتَّضَحَّ لِي فَهُوَ أَنَّنَا لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَبْقَى هُنَا ؛ وَإِلَّا فَتَكَتْ بِنَا حُمَى الْمَلَارِيَا . أَمَّا الشَّيْءُ الثَّالِثُ الْوَاضِحُ أَيْضًا فَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ أَمَامَنَا سِوَى خِيَارَيْنِ : إمَّا أَنْ نَعُودَ إِلَى الْبَحْرِ بِالْقَارِبِ وَنُحَاوِلَ أَنْ نَصِلَ إِلَى مَكَانٍ مَا عَلَى السَّاحِلِ ، أَوْ نَسِيرَ فِي النَّهْرِ حَتَّى مَنَبَعِهِ وَنَرَى إِلَى أَيْنَ سَنَصِلُ . »

فَقَالَ لِيُو : « أَنَا لَا أَعْرِفُ مَا تَتَوَي أَنْ تَفْعَلَهُ ، وَلَكِنِّي سَأَذْهَبُ إِلَى مَنَبَعِ النَّهْرِ . »

فَقَالَ جُوب : « فَلْيَسَاعِدْنَا اللَّهُ . » وَقَالَ مُحَمَّدٌ بِالْعَرَبِيَّةِ الشَّيْءَ نَفْسَهُ .

الفصل السابع إلى متبع النهر

كَانَتْ الرِّيحُ تَهْبُ مِنْ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ ، لِهَذَا فَقَدْ نَشَرْنَا
الشَّرَاعَ ؛ فَانْدَفَعَ بِنَا الْقَارِبُ فِي النَّهْرِ بِسُرْعَةٍ مَعْقُولَةٍ عِدَّةَ سَاعَاتٍ .
وَكُنَّا نَرَى الْعَدِيدَ مِنَ التَّمَاسِيحِ رَاقِدَةً عَلَى ضِفَةِ النَّهْرِ ، أَوْ غَاطِسَةً فِي
الْمِيَاهِ وَلَا تُبْدُو مِنْهَا سِوَى عُيُونِهَا . وَفِي مُتَنَصِّفِ النَّهَارِ تَوَقَّعَتْ
الرِّيحُ ، وَارْتَفَعَتْ حَرَارَةُ الْجَوِّ ، فَلَجَأْنَا إِلَى مَنَاطِقَةٍ تُظِلُّهَا الْأَشْجَارُ ،
وَبَقَيْنَا بِهَا حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ وَاصَلْنَا التَّجْدِيفَ حَتَّى
وَصَلْنَا إِلَى بُحِيرَةٍ صَغِيرَةٍ حَيْثُ عَزَمْنَا أَنْ نَقْضِيَ لَيْلَتَنَا .

وَعِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ جَاءَ ظَبْيٌ جَمِيلٌ ، مِنْ الظُّبَايَا الْمَعْرُوفَةِ بِظُبَايَا
الْمَاءِ ، قَاصِدًا النَّهْرَ لِيَشْرَبَ ، وَلَمَّا لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ كَمْ سَتَطُولُ رِحْلَتُنَا
تِلْكَ الَّتِي سَنَحْتَاجُ خِلَالَهَا إِلَى طَعَامٍ ، لِذَا فَقَدْ سَارَعَ لِيُوَ وَتَنَاوَلَ
بُنْدُقِيَّتَهُ . وَمَا زَالَ ذَلِكَ الْمَشْهُدُ عَالِقًا بِذَاكِرَتِي : إِذْ أَرَاهُ وَاقِفًا حَامِلًا
بُنْدُقِيَّتَهُ ، وَيَقِفُ أَمَامَهُ الظَّبْيُ وَقَدْ خَفَضَ رَأْسَهُ فِي الْمَاءِ لِيَشْرَبَ ،
وَوَظَّهَرَتْ خَلْفَهُ شَمْسُ الْغُرُوبِ كَأَنَّهَا كُرَّةٌ حَمْرَاءُ مُلْتَهَبَةٌ . أَمَّا السَّمَاءُ



فَكَانَتْ تَعِجُ بِأَسْرَابِ الْبَطِّ الْبَرِّيِّ الْعَائِدِ إِلَى أَغْشَاشِهِ مُحْتَزًّا الضَّوَّ
الذَّهَبِيَّ لِشَمْسِ الْغُرُوبِ .

وَكَانَتْ تُحِيطُ بِنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِسَاحَاتٌ شَاسِعَةٌ مِنَ الْمِيَاهِ
وَالْأَغْشَابِ الطَّوِيلَةِ . وَوَسَطَ كُلِّ هَذَا وَقَفَ قَارِبٌ حَدِيثٌ بِهِ ثَلَاثَةُ
رِجَالٍ مُتَحَضِّرِينَ .

انْطَلَقْتُ رَصَاصَةً لَمْ تُصِبِ الظَّبْيَ ؛ فَقَدْ أَخْطَأَ لِيُوَ الْهَدَفَ ، ثُمَّ
أُطْلِقْتُ أَنَا بَعْدَهُ رَصَاصَةً مِنْ بُنْدُقِيَّتِي فَصَاحَ لِيُوَ عَلَى أَثَرِهَا فَرِحًا :
« إِبْصَابَةٌ مُحْكَمَةٌ ! » إِذْ كُنْتُ قَدْ أَصَبْتُ الظَّبْيَ ، فَتَزَلْنَا مِنَ الْقَارِبِ
وَعَدْنَا بِقَدْرِ مَا اسْتَطَعْنَا حَمْلَهُ مِنْ لَحْمِ الظَّبْيِ .

ثُمَّ عَاوَدْنَا التَّجْدِيفَ حَتَّى ابْتَعَدْنَا عَنِ الشَّاطِئِ بِمَسَافَةٍ تَزِيدُ عَلَى خَمْسِينَ مِثْرًا ، وَتَوَقَّفْنَا لِنَتَنَاوَلَ وَجَبَةَ طَعَامٍ ، حَاوَلْنَا بَعْدَهَا أَنْ نَحْلُدَ إِلَى النَّوْمِ ، وَلَكِنَّ النَّوْمَ كَانَ أَمْرًا مُسْتَحِيلًا ؛ إِذْ حَطَّتْ عَلَيْنَا الْمَلَايِينُ مِنَ الْحَشَرَاتِ الَّتِي أَقْبَلَتْ كَأَنَّهَا السُّحُبُ ، وَصَارَتْ تَلْسَعُنَا حَتَّى مِنْ فَوْقِ مَلَابِسِنَا ، فَعَطَيْنَا وُجُوهَنَا ، إِلَّا أَنَّ الْحَشَرَاتِ كَانَتْ تَلْسَعُنَا أَيْضًا مِنْ خِلَالِ الْأَغْطِيَةِ .

وَأَنْقَضَتْ تِلْكَ السَّاعَاتُ الْمُرْعِجَةُ ، ثُمَّ تَنَاهَى إِلَى أَسْمَاعِنَا صَوْتُ اخْتَرَقَ السُّكُونُ ، وَكَانَ زَيْبًا قَوِيًّا أَطْلَقَهُ أَحَدُ الْأَسَدِ ، أَغْقَبَهُ زَيْبُ أَسَدٍ آخَرَ ، فَقَالَ لِيُو :

« كَمْ أَنَا سَعِيدٌ أَنَّنَا عَلَى الشَّاطِئِ الْآنَ . » وَسَرَّعَانَ مَا بَرَعَ ضَوْؤُ الْقَمَرِ ، وَسَمِعْتُ جُوبَ يَقُولُ هَامِسًا : « آه ! يَا إِلَهِي ! انْظُرْ هُنَاكَ . »

كَانَ أَسَدَانِ قَدْ جَذَبَتْهُمَا رَائِحَةُ اللَّحْمِ الطَّازِجِ قَبْدًا يَسْبَحَانِ فِي النَّهْرِ نَحْوَنَا ، وَكَانَتْ عَلَى بُعْدِ حَوَالِي خَمْسَةِ أَمْتَارٍ مِمَّا رُبُوهُ رَمْلِيَّةٌ وَسَطُ الْمِيَاهِ ، فَجَاءَ الْأَسَدُ الْأَوَّلُ وَوَقَفَ عَلَيْهَا ، فَأَطْلَقَ عَلَيْهِ لِيُو النَّارَ فَأَرْدَاهُ قَتِيلًا . أَمَّا الْأَسَدُ الثَّانِي فَقَدْ كَانَ خَلْفَهُ مُبَاشِرَةً ، وَمَا إِنْ مَدَّ قَائِمَتِيهِ الْأَمَامَتَيْنِ إِلَى تِلْكَ الرَّبْوَةِ حَتَّى وَقَعَ صِرَاعٌ رَهِيبٌ ، وَشَاهَدْنَا الْأَسَدَ يُجْرُ إِلَى الْمَاءِ ، فَصَاحَ مُحَمَّدٌ قَائِلًا : « انْظُرُوا ! لَقَدْ أُمْسَكَتَ بِمَسَاحِ بِسَاقِ الْأَسَدِ ! »

وَاسْتَمَرَّ الصِّرَاعُ بَيْنَ الْأَسَدِ وَالتَّمْسَاحِ ، كَادَ الْأَسَدُ خِلَالَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَنْ يُخْرِجَ التَّمْسَاحَ مِنَ الْمَاءِ ، وَلَكِنْ سَرَّعَانَ مَا كَالِ التَّمْسَاحُ يَجْذِبُهُ إِلَى الْمَاءِ مَرَّةً أُخْرَى . وَأَخِيرًا مَالَ رَأْسُ الْأَسَدِ إِلَى الْأَمَامِ ، وَرَأَيْنَاهُ يَغُوصُ فِي أَعْمَاقِ الْمَاءِ ، ثُمَّ خِيمَ الصَّمْتُ حَتَّى لَمْ نَعُدْ نَسْمَعُ سِوَى طَنِينِ مَلَايِينِ الْحَشَرَاتِ .

وَبِاتَّقِضَاءِ الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنْ أَيَّامِ رِحْلَتِنَا كُنَّا قَدْ قَطَعْنَا أَكْثَرَ مِنْ ٢٢٠ كِيلُومِثْرًا فِي الْإِتِّجَاهِ الْغَرْبِيِّ لِلشَّاطِئِ . وَفِي صَبَاحِ هَذَا الْيَوْمِ خَفَّتِ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَتْ السَّاعَةُ قَدْ قَارَبَتْ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ . وَبَعْدَ أَنْ جَدَفْنَا لِمَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ وَصَلْنَا إِلَى بُقْعَةٍ يَتَفَرَّعُ فِيهَا النَّهْرُ إِلَى قَرَعَيْنِ ، فَتَزَلْنَا مِنَ الْقَارِبِ ، وَسِيرْنَا بِأَمْتِدَادِ الْفَرَعِ الشَّرْقِيِّ لِلنَّهْرِ مَسَافَةَ ٤٥ مِثْرًا ، تَبَيَّنَ لَنَا بَعْدَهَا أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ تَمَامًا أَنْ يُيَجَرَ الْقَارِبُ فِي هَذَا الْفَرَعِ ؛ فَالْمِيَاهُ كَانَتْ تَتَنَاقَصُ فِيهِ تَدْرِيجِيًّا حَتَّى صَارَ ضَحْلًا لَا يَتَجَاوَزُ عُمُقُ الْمِيَاهِ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ عِدَّةِ سِتِّمِثْرَاتٍ ، فَعُدْنَا أَدْرَاجَنَا ، وَبَدَأْنَا نَسِيرُ بِأَمْتِدَادِ الْفَرَعِ الْغَرْبِيِّ لِلنَّهْرِ .

وَكَانَ مِنَ الْوَاضِحِ لَنَا أَنَّ هَذَا النَّهْرَ لَيْسَ مِنْ فِعْلِ الطَّبِيعَةِ ، بَلْ هُوَ مَجْرَى مَائِيٍّ مِنْ صُنْعِ الْإِنْسَانِ ، إِذْ كَانَ الطَّنِينُ الْمُتَخَلِّفُ عَنْ حَفْرِهِ مُكَدِّسًا عَلَى الضَّفَّتَيْنِ . وَكَانَ النَّهْرُ يَمْتَدُّ أَمَامَنَا إِلَى نِهَايَةٍ لَا نَعْلَمُهَا فِي اسْتِقَامَةٍ وَاضِحَةٍ ، وَقَدْ خُيِّلَ لَنَا أَنَّ مِيَاهَ النَّهْرِ سَاكِئَةٌ تَكَادُ لَا تَتَحَرَّكُ ، وَكَانَتْ مَلِئَةً بِنَبَاتَاتٍ مَائِيَّةٍ كَثِيفَةٍ .

قال ليو : « يُخِيلُ لِي أَنَّ هَذَا النَّهْرَ قَدْ حُفِرَ لِتَسْتَعْدِمَهُ الْمَرَائِبُ
الَّتِي كَانَتْ تَأْتِي إِلَى الْمَدِينَةِ الْقَدِيمَةِ فِي وَسْطِ الْبِلَادِ . »

فَأَجَبْتُهُ قَائِلًا : « عَلَيْنَا إِمَّا أَنْ نُبْجِرَ فِي هَذَا النَّهْرِ أَوْ نَعُودَ أَذْرَاجَنَا
إِلَى الْبَحْرِ ، فَلَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَبْقَى هُنَا وَإِلَّا أَتَهَمَّتُنَا الْحَشَرَاتُ . »

وَأَنْتَظَرْنَا حَتَّى انْخَفَضَتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ ، وَكَانَتْ الرِّيحُ سَاكِتَةً .
وَعَاوَدْنَا التَّجْدِيفَ سَاعَةً ، وَكَانَتْ مُهِمَّةً شَاقَّةً . وَأَخَذْتُ كَثَافَةَ النَّبَاتَاتِ
الْمَائِيَّةِ تَزْدَادُ بَعْدَ ذَلِكَ ، حَتَّى إِنَّ أَتْنَيْنِ مِنَّا اضْطَرُّوا مِنْ حِينٍ لِآخَرَ إِلَى
النُّزُولِ إِلَى ضِيقِ النَّهْرِ لِيَجْرَا الْقَارِبُ ، بَيْنَمَا تَوَلَّى ثَالِثٌ تَوَجِيهَ الدَّفْعَةِ .
أَمَّا الرَّابِعُ فَكَانَ يَجْلِسُ فِي مُقَدِّمَةِ الْقَارِبِ لِيُزِيحَ النَّبَاتَاتِ جَانِبًا مِنْ أَمَامِ
الْقَارِبِ . وَلَنْ أَصِفَ مَا حَدَثَ خِلَالِ الْأَيَّامِ الْأَرْبَعَةِ التَّالِيَةِ مِنْ أَيَّامٍ
رَحَلْنَا ، فَقَدْ كَانَتْ أَشَقَّ مَا شَهِدْتُهُ مِنْ أَيَّامٍ فِي حَيَاتِي . كَانَتْ أَيَّامٌ عَمَلٍ
لَا تَنْتَهِي تَحْتَ وَطْأَةِ الْحَرَارَةِ الشَّدِيدَةِ وَلَسَعِ الْحَشَرَاتِ . وَفِي الْيَوْمِ
الثَّالِثِ شَاهَدْنَا عَنْ بُعْدٍ ثَلَاثًا غَيْرَ وَاضِحِ الْمَعَالِمِ ، وَتَبَيَّنَ لَنَا فِي الْيَوْمِ
الرَّابِعِ أَنَّ هَذَا الثَّلَّ يَبْعُدُ عَنَّا خَمْسِينَ كِيلُومِترًا تَقْرِيْبًا .

وَكَانَ التَّعَبُ وَالْإِزْهَاقُ قَدْ نَالَا مِنَّا . فَأَيْدِينَا قَدْ تَوَرَّمَتْ وَغَطَّتْهَا
الدَّمَاءُ ، وَشَعْرُنَا بِالْعَجْزِ عَنْ تَحْرِيكِ الْقَارِبِ مِترًا وَاحِدًا . وَلَمْ يَبْقَ
أَمَامَنَا سِوَى أَنْ نَرْقُدَ عَلَى الْأَرْضِ ، وَنَسْتَلْقِيَ فِي أَنْتِظَارِ الْمَوْتِ وَسْطَ
هَذِهِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ ، فَالْقَيْتُ بِجَسَدِي فِي الْقَارِبِ وَأَنَا الْعَيْنُ غَبَائِي الَّذِي
جَعَلَنِي أُنْضَمُ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الرُّحَلَةِ الْمَجْنُونَةِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَنْتَهِيَ بِمَوْتِنَا



جميعاً . وَعِنْدَمَا غَلَبَنِي النَّعَاسُ رَاوَدْتَنِي الْأَحْلَامُ الَّتِي شَاهَدْتُ فِيهَا
مَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ حَالُنَا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ ، عِنْدَمَا سَيَكُونُ هَذَا الْقَارِبُ قَدْ
أَمْتَلَأَ إِلَى مُنْتَصَفِهِ بِالْمَاءِ وَتَنَازَرَتْ فِي أَرْجَائِهِ بَقَايَا أَجْسَادِنَا نَحْنُ الْأَرْبَعَةُ
وَقَدْ تَحَلَّلَتْ وَتَعَفَّنَتْ . وَشَاهَدْتُ فِي أَحْلَامِي جَسَدَ مُحَمَّدٍ مُمَدَّدًا أَمَامِي
وَقَدْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ يَنْظُرُ إِلَيَّ نَظْرَاتٍ كَأَنَّهُ يَلُومُنِي أَنَا وَحْدِي عَلَى مَا لَقِيَهُ .

اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي وَأَنَا أُرْتَعِشُ مِنَ الْخَوْفِ بِسَبَبِ مَا رَأَيْتُهُ مِنْ
أَحْلَامٍ مُخِيفَةٍ ، وَرَأَيْتُ شَيْئًا حَقِيقِيًّا وَلَيْسَ خُلْمًا : رَأَيْتُ عَيْنَيْنِ
وَاسِعَتَيْنِ تُحَمِّلِقَانِ إِلَيَّ وَسَطَ الظُّلَامِ .

نَهَضْتُ وَصِحْتُ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ ، حَتَّى هَبَّ الْآخَرُونَ نِصْفَ نَائِمِينَ
يَرْتَعِدُونَ مِنَ الْخَوْفِ . وَرَأَيْتُ ضَوْءَ الْقَمَرِ يَنْعَكِسُ عَلَى رَأْسِ رُمْحٍ
سُلْطَ نَحْوَ قَلْبِي ، وَكَانَ ثَمَّةَ مَنْ يَسْأَلُ :

« مَنْ أَنْتَ يَا مَنْ أَتَيْتَ سَابِحًا فِي هَذِهِ الْمِيَاهِ ؟ تَكَلَّمْ وَإِلَّا لَقِيتَ
حَتْفَكَ ! » وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ : وَلَكِنَّهَا كَانَتْ نَوْعًا مِنَ الْعَرَبِيَّةِ
الَّتِي صَعَبَ عَلَيَّ فَهْمُهَا ، فَأَجَبْتُهُ بِأَحْسَنِ مَا أَعْرِفُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ : « نَحْنُ
رَحَالَةٌ ، وَقَدْ جِئْنَا إِلَى هُنَا مُصَادَفَةً . »

وَأَدَارَ الرَّجُلُ رَأْسَهُ صَوِّبَ رَجُلٍ طَوِيلَ الْقَامَةِ يَقِفُ خَلْفَهُ وَسَأَلَهُ :
« هَلْ تَقْتُلُهُمْ يَا أَبِي ؟ »

الفصل الثامن سكان الصُّخُورِ

سَأَلَ حَامِلُ الرُّمْحِ وَالِدَهُ قَائِلًا : « هَلْ تَقْتُلُهُمْ يَا أَبِي ؟ »
فَأَجَابَهُ : « مَنْ هُمْ ؟ »

فَقَالَ : « إِنَّهُمْ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْبَيْضِ يُرَافِقُهُمْ شَخْصٌ أَسْوَدُ الْبَشَرَةِ . »
فَقَالَ الرَّجُلُ الطَّوِيلُ : « لَا تَقْتُلُهُمْ ، فَإِنَّ « شَيْءَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ
تُطَاعَ » تَكَلَّمْتُ مَعِيَ وَقَالَتْ : ' إِذَا جَاءَ أَنْاسٌ مِنَ الْبَيْضِ هُنَا
فَلَا تَقْتُلُهُمْ ، بَلْ أَحْضِرْهُمْ إِلَيَّ وَأَحْضِرْ مَعَهُمْ كُلَّ مَا يَحْمِلُونَهُ . ' »
فَقَالَ لَنَا حَامِلُ الرُّمْحِ : « هَيَّا ! »

وَجَذَبْنَا خَارِجَ الْقَارِبِ إِلَى ضِيفَةِ النَّهْرِ حَيْثُ كَانَتْ كَوْكَبَةٌ مِنْ
خَمْسِينَ رَجُلًا يَحْمِلُونَ كُلُّهُمْ رِمَاحًا . وَكَانُوا طَوَالَ الْقَامَةِ بِدَرَجَةِ
مُلْحُوْظَةٍ ، أَقْوِيَاءَ الْبَنِيَّةِ ، ذَوِي بَشَرَةٍ فَاتِحَةٍ ، وَلَا يَرْتَدُونَ شَيْئًا سِوَى
قِطْعٍ مِنْ جُلُودِ الْأَسْوَدِ يُلَفُّونَهَا حَوْلَ خُصُورِهِمْ .

وَصَاحَ الرَّجُلُ الطَّوِيلُ : « أَحْضِرُوا الْمَحَافَ . »

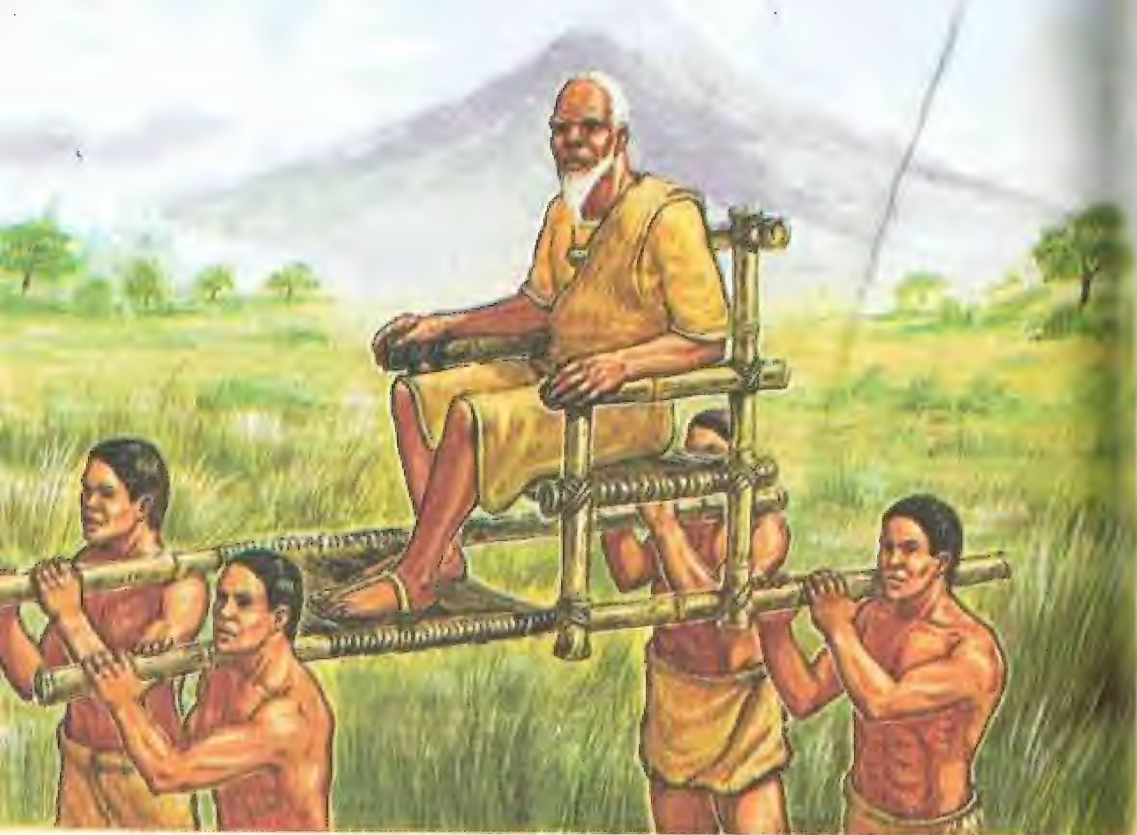
فَاقْبَلَ عَدَدٌ مِنَ الرِّجَالِ يَحْمِلُونَ الْمَحَافَ ، وَكَانَ كُلُّ أَرْبَعَةِ رِجَالٍ يَحْمِلُونَ مِحْفَةً ، وَمَعَهُمْ رَجُلَانِ آخَرَانِ لِيَتَبَادَلَا الْعَمَلَ مَعَ الْآخَرِينَ كُلِّ فِي دَوْرِهِ .

فَقَالَ لِيُو : « حَسَنٌ ، إِنَّهُ لَشَيْءٌ جَمِيلٌ أَنْ تَجِدَ مَنْ يَقُومُونَ بِحَمْلِنَا بَعْدَ أَنْ حَمَلْنَا أَنْفُسَنَا مَسَافَةً طَوِيلَةً . »

وَكَانَ لِيُو لَا يَرَى مِنَ الْأُمُورِ سِوَى جَانِبِهَا الْمَشْرِقِ الْمُتَفَائِلِ . وَمَا إِنْ جَلَسْنَا عَلَى تِلْكَ الْمَحَافِ حَتَّى تَحْرُكَ بِنَا الْحَمَالُونَ ، وَسَارُوا بِنَا وَهُمْ يُعْنَوْنَ ؛ وَسُرْعَانَ مَا غَلَبَنِي النَّوْمُ بِتَأْثِيرِ الْحَرَكَةِ وَالْغِنَاءِ .

وَعِنْدَمَا اسْتَيْقَظْتُ كَانَتْ الشَّمْسُ عَمُودِيَّةً فِي السَّمَاءِ ، وَكُنَّا لَا نَزَالُ نَسِيرُ بِسُرْعَةٍ سِتَّةَ كِيلُومِتْرَاتٍ فِي السَّاعَةِ . وَكُنَّا قَدْ غَبَرْنَا مِنْطَقَةَ الْأَرْضِ الْوَاطِئَةِ إِلَى سَهْلٍ مُعْشَبٍ يَمْتَدُّ نَحْوَ ثَلَاثِينَ كِيلُومِتْرًا .

وَتَطَلَّعْتُ إِلَى الرِّجَالِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْمِلُونَنَا فَوَجَدْتُهُمْ عَلَى جَانِبٍ مِنَ الْأُوسَامَةِ وَجَمَالِ الْمَلَامِحِ ، وَلَكِنَّ الشَّرَّ كَانَ يَمَلَأُ وُجُوهَهُمْ . وَلَمْ يَضْحَكُوا ، بَلْ لَمْ يَتَسِمُوا قَطُّ . كَانُوا يُعْنَوْنَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، وَيَلُودُونَ بِالصَّمْتِ فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي لَا يُعْنَوْنَ فِيهَا ، وَلِسَبَبٍ مَا وَجَدْتُ أَنَّ مَظْهَرَهُمُ الْعَامَّ يَمَلَأُنِي بِالْخَوْفِ .



وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَتَسَاءَلُ عَمَّنْ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ وَمِنْ أَيْنَ قَدِمُوا ، شَاهَدْتُ مِحْفَةً تُحْمَلُ عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنِّي مِنَ النَّاحِيَةِ الْيُمْنَى ، وَيَجْلِسُ عَلَيْهَا رَجُلٌ مُسِنَّ يَرْتَدِي مَلَابِسَ صَفْرَاءِ اللَّوْنِ تُشَبِّهُ إِلَى حَدِّ مَا تِلْكَ الَّتِي وَجَدْتُهَا فِي الصُّنْدُوقِ الْحَدِيدِيِّ ، وَاسْتَنْجَحْتُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ الَّذِي كَانُوا يُنَادُونَهُ يَا أَبِي . وَكَانَ الرَّجُلُ بَهِيِّ الطَّلَعَةِ مُسِنَّ ، ذَا لِحْيَةٍ بَيضاء وَعَيْنَيْنِ تَبْرَقَانِ بِبَرِيقِ الْحِكْمَةِ .

قَالَ لِي الرَّجُلُ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ عَمِيقٍ : « إِذَا فَقَدْ اسْتَيْقَظْتَ أَخِيرًا أَيُّهَا الْعَرِيبُ . »

فَاجَبْتُهُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَبَادَبَ جَمٌّ : « نَعَمْ يَا أَبِي . صَبَاحُ الْخَيْرِ . »

فَابْتَسَمَ الرَّجُلُ وَقَالَ : « إِنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ جِئْتُ ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ
أَنَّكَ جِئْتَ مِنْ بَلَدٍ يَعْرِفُ سُكَّانُهُ شَيْئًا عَنْ لُغَتِنَا ، وَيَهْتَمُّونَ بِآدَابِ
الْسُّلُوكِ . وَلَكِنْ لِمَاذَا جِئْتَ إِلَى هَذَا الْبَلَدِ الَّذِي لَمْ يَزُرْهُ غَرِيبٌ مِنْذُ
زَمَنِ طَوِيلٍ حَسِبَ مَا أَتَذَكَّرُ ؟ هَلْ ضِيقَتْ ذَرْعًا بِالْحَيَاةِ ؟ »

فَأَجَبَتْهُ : « لَقَدْ جِئْنَا بَحْثًا عَنْ أَشْيَاءَ جَدِيدَةٍ ، فَقَدْ مَلْنَا الْأَشْيَاءَ
الْقَدِيمَةَ . إِنَّا نَنْتَمِي إِلَى قَوْمٍ مِنَ الشُّجْعَانِ ، وَلَا تَرْهَبُ الْمَوْتَ إِذَا
اسْتَطَعْنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ شَيْئًا جَدِيدًا قَبْلَ أَنْ نَمُوتَ . »

فَقَالَ الرَّجُلُ الْمُسِينُ : « حَسَنٌ ، قَدْ يَكُونُ هَذَا صَاحِبًا وَأَحْسَبُ
أَنَّ « شَيْءَ اللَّهِ يَجِبُ أَنْ تُطَاعَ » سَتَكُونُ قَادِرَةً عَلَى أَنْ تُحَقِّقَ لَكُمْ
مَا تَتَمَنَّوْنَهُ . »

فَسَأَلَتْ : « مَنْ تَكُونُ « شَيْءَ اللَّهِ يَجِبُ أَنْ تُطَاعَ » ؟ »

فَضَحِكَ ضِحْكَةً كَرِيهَةً جِدًّا وَقَالَ : « سَوْفَ تَعْرِفُ ذَلِكَ قَرِيبًا ،
إِذَا رَغِبْتَ « شَيْءَ » أَنْ تَرَاكَ وَأَنْتَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ . »

وَعُدْتُ أَسْأَلُهُ : « مَا اسْمُ شَعْبِكُمْ ؟ »

فَأَجَابَ : « نَحْنُ شَعْبُ أُمَاهَاجِرَ — سُكَّانُ الصُّخُورِ . »

سَأَلْتُهُ : « هَلْ لِي أَنْ أَسْأَلَكَ مَا اسْمُكَ ؟ »

فَأَجَابَ : « اسْمِي بِلَالِي . »

سَأَلْتُهُ : « أَيْنَ نَحْنُ ذَاهِبُونَ الْآنَ ؟ »

فَأَجَابَ : « سَتَرَى ذَلِكَ بِنَفْسِكَ . »

وَأَمَرَ رِجَالَهُ أَنْ يَتَقَدَّمُوا بِهِ إِلَى حَيْثُ كَانَ جُوبٌ جَالِسًا فَوْقَ مِخْفَتِهِ
وَقَدْ تَذَلَّتْ إِحْدَى سَاقَيْهِ مِنْ جَانِبِ الْمِخْفَةِ .

الفصل التاسع

قاعة الاستراحة في الكهف

غلبني النوم مرة أخرى ، وعندما استيقظت وجدت أننا نمر بين جدارين صخريين ، ثم انعطفنا يمينا لأجد منظرا جميلا : رأيت واديا واسعا يمتد حوالى ثمانية كيلومترات ، تحيط بجانيه الصخور التي تنمو فوقها الشجيرات ، أما وسطه فقد كان غنيا بالعشب الأخضر الكثيف ، والأشجار الباسقة المتناثرة ، وجداول الماء الصغيرة .

وشاهدت في الوادي أعدادا كبيرة من الأبقار وغيرها من الماشية ، ورجالا يتجولون وسطها ، ولكني لم أر أثرا لأيّة منازل بالوادي ، فأين يعيش هؤلاء الناس ؟

انعطفنا يسارا وواصلنا مسيرتنا على حافة الوادي مسافة كيلومتر تقريبا ثم توقفنا . ونزل ذلك الرجل المسن المدعو بلالي من محفّته ففعلت مثله ، وشاهدت محمدا المسكين ممددا على الأرض ، إذ لم يكن قد أعطي محفّة ، بل أكره على العدو طوال هذه المسافة .

كنا قد توقفنا عند مكان متبسط أمام مدخل كهف ، وكانت كل

محتويات القارب قد نُقلت إلى داخله . ووقف هناك الرجال الذين تولوا حملنا ومعهم آخرون من الرجال على شاكلتهم . وكان هناك أيضا عدد من النساء ، ولم يكن يلبسن جلود الأسود كالرجال ، بل كن يرتدين جلود طباء الماء ، وكان بعضهن يلبسن قماشا أصفر اللون ، مثل القماش الذي وجدته في الصندوق الحديدي . وتبينت فيما بعد أن لهذا القماش الأصفر دلالة على المكانة .

وعندما نزل ليؤ من محفّته أبدى الناس اهتماما ملحوظا به ، وخصوصا عندما خلع معطفه ورأوا شعره الأصفر .

وكانت تقف وسط هذه الجمهرة من الناس سيّدة فائقة الحسن



تَرْتَدِي مَلَايِسَ صَفَرَاءَ وَلَهَا بَشَرَةٌ قَمْحِيَّةٌ وَشَعْرٌ بَنِي . وَتَفَحَّصَتْ تِلْكَ
السَّيِّدَةُ لِيَوْمَ مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهِ إِلَى أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ ، ثُمَّ تَقَدَّمَتْ نَحْوَهُ
وَطَوَّقَتْ عُنُقَهُ بِذِرَاعَيْهَا وَقَبَّلَتْ يَدَهُ . وَتَوَقَّعَتْ أَنْ يَنْدَفِعَ الرِّجَالُ نَحْوَ
لِيَوْمَ وَيَطْعَنُوهُ بِرِمَاحِهِمْ . وَقَالَ جُوب : « يَا لَهَا مِنْ أَمْرَةٍ جَسُورٍ
لَا تَسْتَحْي ! »

بَدَتْ اللَّذْهَشَةُ عَلَى لِيَوْمَ لِمَا حَدَّثَ ، وَظَنَّ أَنَّهَا إِحْدَى الْعَادَاتِ الْعَرَبِيَّةِ
فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ ؛ لِذَا فَإِنَّهُ رَدَّ التَّحِيَّةَ . وَمَرَّةً أُخْرَى تَوَقَّعَتْ حُدُوثُ
شَيْءٍ ، وَلَكِنْ مَا حَدَّثَ هُوَ أَنَّ الشَّابَّاتِ تَمْلِكُهُنَّ شُعُورٌ بِالْغَضَبِ ، أَمَّا
الْعَجَائِزُ فَاتَّبَسَّمْنَ . وَعَرَفَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مَغْزَى ذَلِكَ كُلِّهِ : قِمَّةُ نَوْعٍ مِنَ
الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ عِنْدَ شَعْبِ الْأَمَاهَجِرِ . فَالْنِسَاءُ يَحْتَرِنَ
أَرْوَاجَهُنَّ بِحَيِّثِهِمْ بِهِذِهِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي إِذَا مَا رَدَّ بِمِثْلِهَا الرَّجُلُ فَهَمَّتْ
مُوافَقَتَهُ عَلَى الزَّوْاجِ .

كَانَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ تُدْعَى أَوْسْتَانُ ، وَبِهَذَا تَكُونُ أَوْسْتَانُ قَدْ
اخْتَارَتْ لِيَوْمَ زَوْجًا لَهَا ، كَمَا أَنَّ لِيَوْمَ — كَمَا بَدَأَ لَهَا — قَدْ وَافَقَ عَلَى
ذَلِكَ .

شَاهَدَتْ أَمْرَةً تَجَاوَرَتْ مَرَّحَلَةَ الشَّيَابِ تَتَقَدَّمُ نَحْوَ جُوبِ ، الَّذِي
بَدَأَ خَائِفًا جِدًّا ، وَلَكِنْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَقْبَلَ بِلَالِي وَقَادَنَا إِلَى دَاخِلِ
الْكَهْفِ . وَكَانَتْ مِسَاحَتُهُ تُقَدَّرُ بِحَوَالِي ثَلَاثِينَ مِثْرًا طَوْلًا ، وَخَمْسَةَ
عَشَرَ مِثْرًا عَرْضًا ، وَتَنْفَرُّ مِنْهُ مَمَرَاتٌ عَدِيدَةٌ . وَكَانَ مِنَ الْوَاضِحِ

أَنَّ هَذَا الْكَهْفَ لَيْسَ مِنْ صُنْعِ الطَّبِيعَةِ بَلْ مِنْ صُنْعِ الْإِنْسَانِ وَلَوْ
بِصُورَةٍ جُرْئِيَّةٍ .

وَكَانَتْ هُنَاكَ نَارٌ مَوْقَدَةٌ فِي وَسْطِ الْكَهْفِ ، تُلْقَى بِظِلَالِهَا عَلَى
جُدْرَانِ الْكَهْفِ وَسَقْفِهِ . وَقَادَنَا بِلَالِي إِلَى النَّارِ ، وَأَجْلَسَنَا عَلَى فِرَاشٍ
مِنَ الْجُلُودِ أُعِدَّ لَنَا ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ بَعْضُ الْفَتَيَاتِ يَحْمِلْنَ لَنَا طَعَامًا مُكَوَّنًا
مِنَ اللَّحْمِ وَالذَّرَّةِ الْمَسْلُوقَةِ وَاللَّبَنِ ، وَكُنَّا جَائِعِينَ لِلْغَايَةِ .

وَبَعْدَ أَنْ فَرَعْنَا مِنْ طَعَامِنَا ، وَقَفَ بِلَالِي وَقَالَ : « إِنَّ هَذَا شَيْءٌ
رَائِعٌ ؛ فَلَمْ يَسْبِقْ أَنْ قَدِمَ رَجُلٌ أَيْضًا إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ . وَحَتَّى الْقَلِيلُ
مِنَ الرِّجَالِ الْبَيْضِ الَّذِينَ قَدِمُوا قَدْ لَقُوا مَصْرَعَهُمْ . عِنْدَمَا شُوهِدْتُمْ
تَجْذِبُونَ الْقَارِبَ عَبْرَ الْمَمَرِ الْمَائِي الْقَدِيمِ ، أَصْدَرْتُ أَوْامِرِي بِقَتْلِكُمْ ،
وَلَكِنِّي تَلَقَّيْتُ عِنْدَيْدِ رِسَالَةٍ مِنْ « شَيْ » . »

سَأَلْتُ : « « شَيْ » ؟ ! »

أَجَابَ : « إِنَّ اسْمَهَا الْكَامِلُ هُوَ « شَيْ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُطَاعَ » ،
وَلَكِنْ لِلِاخْتِصَارِ نَطْلُقُ عَلَيْهَا اسْمَ « شَيْ » . يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ آلَانَ
إِلَيْهَا لِأَقِفَ عَلَى أَوْامِرِهَا الْتَالِيَةِ . »

سَأَلْتُهُ : « كَمْ سَيَطُولُ غِيَابُكَ ؟ »

أَجَابَ « سَاعِدُودُ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ . »

قُلْتُ : « إِذَا فَهِيَ تُسْكُنُ عَلَى بُعْدِ مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ مِنْ هُنَا ؛ فَكَيْفَ عَرَفْتَ بِوُصُولِنَا ؟ »

إِبْتَسَمَ بِلَالِي ، وَتَطَلَّعَ حَوْلَهُ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ أَحَدًا بِالقَرَبِ مِنَّا . ثُمَّ قَالَ بِهَدوءٍ :

« أَلَا يَوْجَدُ فِي بَلَدِكُمْ مَنْ يَرَى بِدُونِ عَيْنَيْنِ أَوْ يَسْمَعُ بِدُونِ أُذُنَيْنِ ؟ لَا تَسْأَلُ آيَةَ اسْئَلَةٍ ؛ « شَيْءٌ » عَرَفْتُ . »

ثُمَّ وَاصَلَ حَدِيثَهُ قَائِلًا : « سَوْفَ أَعُودُ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ ، وَسَيَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدًّا لِرَاحَتِكُمْ أَثْنَاءَ غِيَابِي ، وَأَتَمَنِّي أَنْ تَكُونَ مَشَاعِرُ « شَيْءٍ » نَحْوَكُمْ طَيِّبَةً ، وَسَوْفَ أَتَكَلَّمُ بِمَا فِيهِ صَالِحُكُمْ ؛ لِأَنِّي أُحِبُّكُمْ . وَلَكِنِّي لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أُعْطِيَكُمْ إِلَّا بِصِيصًا مِنْ أَمَلٍ ؛ فَكُلُّ غَرِيبٍ وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ أَثْنَاءَ حَيَاتِي وَحَيَاةِ أُمِّي وَجَدَّتِي وَجَدَّةَ أُمِّي قُتِلَ ؛ وَقَدْ قُتِلَ جَمِيعُ الْغُرَبَاءِ بِطَرِيقَةِ بَشِيعَةٍ لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَهَا لَكُمْ . وَكَانَتْ « شَيْءٌ » تَأْمُرُ دَائِمًا بِقَتْلِهِمْ ، أَوْ عَلَى الْأَقَلِّ تَسْمَحُ بِقَتْلِهِمْ . »

قُلْتُ لَهُ : « أَنَا لَا أَفْهَمُ ذَلِكَ . إِنَّكَ رَجُلٌ مُسِينٌ ، فَكَيْفَ تَأْتِي لِي « شَيْءٌ » أَنْ تُصْدِرَ الْأَوَامِرَ بِقَتْلِ أَحَدٍ أَثْنَاءَ حَيَاةِ جَدَّةِ أُمِّكَ ؟ فَهِيَ لَمْ تَكُنْ قَدْ وُلِدَتْ آنَذَاكَ ! »

إِبْتَسَمَ بِلَالِي مَرَّةً أُخْرَى ، وَانْصَرَفَ دُونَ أَنْ يُجِيبَ عَنْ سُؤَالِي .

الفصل العاشر الأيام الأربعة الأولى

تَوَلَّى أُمُورَنَا رَجُلٌ بَالِغُ الدَّمَامَةِ فِي حَوَالِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمرِهِ . وَلَمَّا أَبْلَغَتْهُ بَرَعَتُنَا فِي الْإِسْتِحْمامِ قَادَنَا إِلَى مَجْرَى مَائِي ، حَيْثُ اسْتَحَمَّمْنَا . وَعَدْنَا بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ، وَوَجَدْنَا الْكَهْفَ مُمْتَلَأًا بِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ جَلَسُوا حَوْلَ نَارٍ مُشْتَعِلَةٍ يَتَنَاولُونَ عِشَاءَهُمْ .

كَانُوا يَتَنَاولُونَ طَعَامَهُمْ فِي صَمْتٍ بَالِغٍ ، فَجَلَسْنَا تَرَقُّبُهُمْ بَعْضَ الْوَقْتِ . وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْمَشْهُدُ شَائِقًا ، فَقُلْتُ لِلرَّجُلِ الْقَائِمِ عَلَى حِرَاسَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ لَنَا أَنْ نَخْلُدَ إِلَى النَّوْمِ .

وَبِدُونِ أَنْ يَنْطَلِقَ الرَّجُلُ بِكَلِمَةٍ حَمَلٍ مُصْبِحًا ، وَقَادَنِي غَيْرُ أَحَدٍ الْمَمَرَاتِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَنْفَرُغُ مِنَ الْكَهْفِ ، فَسَرْنَا فِيهِ بِضْعَ خُطَوَاتٍ ، وَانْتَهَى بِنَا إِلَى حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ . وَكَانَ فِي أَحَدِ جَوَانِبِ الْحُجْرَةِ رَفٌّ حَجَرِيٌّ طَوْلُهُ مِثْرٌ ، وَعَرْضُهُ نِصْفُ مِثْرٍ ، وَأَشَارَ إِلَيَّ بِأَنْ أُنَامَ عَلَيْهِ . وَلَمْ يَكُنْ بِالْحُجْرَةِ نَوَافِدُ أَوْ فَتَحَاتٍ لِلتَّهْوِيَةِ ، أَوْ مَقَاعِدُ ، أَوْ أَيُّ

شَيْءٌ . وَخَيْلٌ لِي أَنَّ الْحُجْرَةَ أُعِدَّتْ لِتَكُونَ مَكَانًا لِرَاحَةِ الْمَوْتَى ، وَلَيْسَ مَكَانًا لِتَوَامِ الْأَحْيَاءِ ، وَقَدْ تَبَيَّنَ صِدْقُ حَدْسِي بَعْدَ ذَلِكَ . وَلَكِنْ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ مَكَانًا لِأَنَامٍ فِيهِ ؛ لِذَا عَبَرْتُ إِلَى الْكَهْفِ لِأُخْضِرَ حَقِيقَةَ أَشْيَائِي . وَفِي الْكَهْفِ رَأَيْتُ جُوبًا ، وَكَانُوا قَدْ أَقْتَادُوهُ إِلَى حُجْرَةٍ مُمَائِلَةٍ .

قَالَ لِي : « إِنَّ الْحُجْرَةَ لَيْسَتْ سِوَى قَبْرِ يَا سَيِّدِي ، وَلَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَنَامَ فِيهَا وَحْدِي . هَلْ لِي أَنْ أُرَافِقَكَ يَا سَيِّدِي ؟ »

وَفِي الصَّبَاحِ سَمِعْنَا صَوْتَ دَقَاتِ طَبُولٍ ، فَتَهَضَّنَا ، وَتَوَجَّهْنَا إِلَى الْمَجْرَى الْمَائِي حَيْثُ آغْتَسَلْنَا ، ثُمَّ قَدَّمْ لَنَا طَعَامَ الْإِفْطَارِ . وَبَيْنَمَا كُنَّا نَتَنَاوَلُ إِفْطَارَنَا أَقْبَلَتْ أَمْرَأَةٌ وَحَاوَلَتْ أَنْ تُقْبَلَ جُوبًا ، وَلَكِنْ جُوبَ غَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا وَصَاحَ فِيهَا قَائِلًا :

« اِبْتَعِدِي عَنِّي ! اِبْتَعِدِي عَنِّي ! صَدَّقْنِي يَا سَيِّدِي ، لَمْ أَرْ هَذِهِ الْمَرْأَةَ مِنْ قَبْلُ . هِيَ ذِي تَعُودُ إِلَيَّ ! أَبْعِدْهَا يَا سَيِّدُ هُوْلِي ! » ثُمَّ اسْتَدَارَ وَوَلَّى هَارِبًا .

رَأَيْتُ بَعْضَ رِجَالِ الْأَمَاهَا جَرِ يَضْحَكُونَ ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ وَقَفَتْ تَرْجِفُ مِنَ الْغَضَبِ . وَتَمَنَّيْتُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَوْ كَانَ جُوبٌ أَقْلَ جِرْصًا عَلَى سَمْعِيهِ ، وَأَكْثَرَ جِرْصًا عَلَى مَشَاعِرِي تِلْكَ السَّيِّدَةِ ؛ إِذْ خَشِيتُ أَنْ يُعْرَضَ هَذَا التَّصَرُّفُ حَيَاتِنَا لِلْخَطَرِ ، وَهَذَا مَا حَدَثَ بِالْفِعْلِ .

شَرَحْتُ لِلرِّجَالِ الْمَوْقِفَ ، فَقُلْتُ : « إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مُتَزَوِّجٌ بِسَيِّدَةٍ فَطِيعَةٍ ، أَحَالَتْ حَيَاتُهُ جَحِيمًا ؛ وَلِهَذَا يَخْشَى كُلَّ النِّسَاءِ . » اسْتَمَعَ الرِّجَالُ فِي صَمْتٍ ، وَكَانَ مِنَ الْجَلِيلِيِّ أَنْ تَصَرَّفَ جُوبٌ مَعَ تِلْكَ الْمَرْأَةِ مَسَّ كِبَرِيَاءَهُمْ وَأَغْضَبَهُمْ .

وَبَعْدَ أَنْ تَنَاوَلْنَا طَعَامَ الْإِفْطَارِ — أَخَذْنَا تَرْقُبَ بَعْضِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَهُمْ يَعْمَلُونَ فِي الْحُقُولِ ، وَقَدْ صَحَبْتُنَا أَوْسْتَانُ . وَجَلَسْنَا بِجَوَارِ مَجْرَى مَائِي صَغِيرٍ ، وَوَجَّهْتُ لِأَوْسْتَانِ بَعْضَ التَّسْأُولَاتِ عَنْ قَوْمِهَا :

سَأَلْتُهَا : « مِنْ أَيْنَ يَنْحَدِرُ قَوْمُكُمْ ؟ »

أَجَابَتْ : « لَا أَعْرِفُ ، وَلَكِنَّ ثَمَّةَ الْكَثِيرِ مِنْ آثَارِ مَدِينَةٍ قَدِيمَةٍ قُرْبَ الْمَكَانِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ « شِي » ؛ وَتُسَمَّى تِلْكَ الْمَدِينَةُ خُور . وَلَا يَجْرُو أَحَدٌ عَلَى الْإِقْتِرَابِ مِنْ تِلْكَ الْآثَارِ ؛ إِذْ تُسَكِّنُهَا أَرْوَاحُ الْمَوْتَى . وَثَمَّةَ آثَارٍ أُخْرَى فِي أَنْحَاءٍ مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ الْبِلَادِ فِي الْمَنَاطِقِ الَّتِي يَرْتَفِعُ فِيهَا مُسْتَوَى الْأَرْضِ . وَهُنَاكَ أَيْضًا بَعْضُ الْكَهُوفِ الَّتِي نَحْتَهَا فِي الصَّخْرِ سُكَّانُ الْمُدُنِ . »

سَأَلْتُهَا : « هَلْ لَدَيْكُمْ قَوَانِينُ ؟ »

أَجَابَتْ : « تَوْجَدُ تَقَالِيدُ قَوْمِنَا ، وَمَنْ يَرْتَكِبُ جُرْمًا يُعَذَّبُ . »

سَأَلْتُهَا : « كَيْفَ تُعَذِّمُونَهُ ؟ »

اِسْتَسَمْتُ وَقَالَتْ : « قَدْ تَرَى ذَلِكَ بِنَفْسِكَ قَرِيبًا . »

سَأَلَتْ : « هَلْ لَكُمْ حَاكِمٌ ؟ » .

أَجَابَتْ : « نَعَمْ ، « شَيْ » مَلِكُنَا . وَلَا تَرَاهَا إِلَّا نَادِرًا ... مَرَّةً
أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي الْعَامِ عِنْدَمَا تُصْدِرُ حُكْمَهَا بِإِعْدَامِ أَحَدٍ . »

قُلْتُ : « صِفِي لِي شَكْلَهَا . »

قَالَتْ : « لَا أَغْرِفُ ، فَهِيَ دَائِمًا مُقَنَّعَةٌ حَتَّى لَا يَرَى وَجْهَهَا أَحَدٌ .
وَيُقَالُ إِنَّهَا جَمِيلَةٌ لِلْغَايَةِ ، وَإِنَّهَا تَعِيشُ إِلَى الْأَبَدِ ، وَلَهَا سُلْطَانٌ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ . »

وَهَكَذَا مَرَّتْ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ يَدُونَ أَنْ يَحْدُثَ شَيْءٌ يُذَكِّرُ . وَكُنَّا خِلَالَ
هَذِهِ الْفَتْرَةِ نَتَمَشَّى ، وَنُسْأَلُ أَوْسَتَانَ وَغَيْرَهَا الْعَدِيدَ مِنَ الْأَسْئِلَةِ ،
وَتَكُونَتْ لَدَيْنَا صُورَةٌ وَاضِحَةٌ عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَمْ يَزُرْهُمْ غَرِيبٌ
مُنْذُ مِائَتِ السَّنِينَ . لَقَدْ خُيِّلَ لِي أَنَّ تِلْكَ الْبِلَادَ قَدْ غُرِلَتْ عَنِ الْعَالَمِ
الْخَارِجِيِّ تَمَامًا ؛ فَلَمْ يَتِمَّكُنْ أَحَدٌ مِنْ أَنْ يَجْتَازَ تِلْكَ الْأَرْضِيَّ الْوَاطِئَةَ
مَا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ طَرِيقَهُ خِلَالَهَا ، وَكُلُّ مَنْ حَاوَلَ ذَلِكَ لَقِيَ حَتْفَهُ
مُصَابًا بِالْمَلَارِيَا ، أَوْ جَوْعًا أَوْ غَرَقًا . لَقَدْ سَرَّ لِي أَنْ يَرَى جَانِبًا مِنْ
الْقِصَّةِ حَقِيقًا . وَلَكِنْ جُوبَ تَمَلُّكُهُ الْحَيِّرَةُ ، وَلَمْ يَعُدْ يَدْرِي مَاذَا
يُصَدِّقُ ، وَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهُ سِوَى أَنْ يَتَعَجَّبَ مِنْ كُلِّ مَا يَرَاهُ . أَمَّا مُحَمَّدٌ

الْعَرَبِيُّ فَقَدْ أَشْتَدَّ بِهِ الْخَوْفُ . وَكَانَ شَعْبُ الْأَمَاهَجِرِ يُعَامِلُهُ مُعَامِلَةً
لَطِيفَةً يَشُوبُهَا قُتُورٌ ، وَقَدْ تَعَجَّبْتُ مِنْ مَخَافَتِهِ الَّتِي لَمْ أَجِدْ لَهَا مُبَرَّرًا ،
وَلَكِنَّهُ قَالَ لِي : « هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ شَيَاطِينُ . » وَكَانَ هَذَا رَدُّهُ الْوَحِيدَ .
وَوَقَعَ فِي اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةِ حَادِثٌ .

الفصل الحادي عشر

مَعْرَكَةُ الْكَهْفِ

كُنَّا ، فِي اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةِ ، نَجْلِسُ نَحْنُ الثَّلَاثَةُ وَأَوْسْتَانُ حَوْلَ النَّارِ ،
عِنْدَمَا شَرَعْتُ أَوْسْتَانُ تُعْنِي بِصَوْتٍ خَفِيفٍ . وَلَمْ أَفْهَمْ كُلَّ كَلِمَاتِ
الْأُغْنِيَةِ ، وَيَبْدُو أَنَّهَا كَانَتْ إِحْدَى أَغَانِي الْحُبِّ . وَأُحْسَسْتُ بِرَعِشَةٍ
خَوْفٍ فِي صَوْتِهَا وَهِيَ تُعْنِي ، وَفَجْأَةً تَوَقَّفَتْ عَنِ الْغِنَاءِ . وَتَبَتَّ عَيْنُهَا
عَلَى شَيْءٍ فِي الظَّلَامِ ، وَمَدَّتْ يَدَهَا تُشِيرُ إِلَيْهِ . وَلَكِنَّا لَمْ نَرَ شَيْئًا .

سَأَلَهَا لِيُو : « مَاذَا بَلَكَ يَا أَوْسْتَانُ ؟ »

أَطْلَقْتُ ضِحْكَةً مُفْتَعَلَةً ، وَقَالَتْ : « لَا شَيْءَ ! يَتَّبِعِي عَلَيَّ إِلَّا أَثِيرَ
مَخَافِكَ . وَلَا أُرِيدُ مِنْكَ سِوَى أَنْ تَتَذَكَّرَنِي بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ عِنْدَمَا
أَمُوتُ . »

وَجَاءَنَا فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْتَالِي حَارِسُنَا ، وَأُبْلَغْنِي أَنَّ حَفْلًا سَيَقَامُ
عَلَى شَرَفِنَا . وَعِنْدَمَا سَمِعْتُ أَوْسْتَانُ ذَلِكَ أَرْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهَا

عَلَامَاتُ الدُّعْرِ ، وَأَمْسَكَتْ ذِرَاعَ الرَّجُلِ وَتَحَدَّثَتْ إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ رَدَّ
عَلَيْهَا بِجَفَاءٍ . وَبَدَا وَاضِحًا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ سَعِيدَةً بِمَا سَمِعَتْ . وَحَاوَلْتُ
الْتَحُلُّصَ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى ذَلِكَ الْحَفْلِ فَقُلْتُ : « نَحْنُ قَوْمٌ نَشْدُ الْهُدُوءَ
وَلَا نُحِبُّ الْإِخْتِفَالَاتِ . » وَلَكِنَّ إِيَّائِي لَمْ تَلْقَ سِوَى الصَّمْتِ .

وَقَبْلَ الْغُرُوبِ مُبَاشَرَةً أُبْلِغْتُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُعِدَّ : كَانَتْ النَّارُ
قَدْ أُشْعِلَتْ فِي قَلْبِ الْكَهْفِ ، وَجَلَسَ حَوْلَهَا خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ رَجُلًا
وَأَمْرَاتَانِ ، هُمَا أَوْسْتَانُ وَالْمَرْأَةُ الَّتِي سَعَتْ إِلَى جُوبِ ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ
بَيْنَ الرَّجَالِ أَيْضًا .

قَالَ جُوبُ : « أَنْظُرْ ! هَا هِيَ ذِي الْمَرْأَةِ الَّتِي تُرِيدُنِي تَتَكَلَّمُ مَعَ
مُحَمَّدٍ . إِنَّنِي مَسْرُورٌ أَنَّهَا لَا تَتَكَلَّمُ مَعِي . »

نَهَضَتِ الْمَرْأَةُ وَاقِفَةً ، وَاقْتَادَتْ مُحَمَّدًا بَعِيدًا عَنِ الرُّكْنِ الَّذِي كَانَ
يَجْلِسُ فِيهِ ، وَكَانَ الرَّعْبُ بَادِيًا عَلَيْهِ .

قُلْتُ : « هَذَا الْمَشْهُدُ لَا يُعْجِبُنِي . هَلْ تَحْمِلُ مُسَدَّسَكَ
يَا جُوبُ ؟ »

كَانَ جُوبُ يَحْمِلُ مُسَدَّسَهُ ، وَكَانَ مَعِي مُسَدَّسِي أَيْضًا ، أَمَّا لِيُو
فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ سِوَى سِكِّينِ .

كَانَ الرَّجَالُ يَجْلِسُونَ فِي صَمْتٍ تَامٍ يُعْرَوْنَ إِبْرِيْقًا فِيمَا بَيْنَهُمْ . وَلَمْ

يَكُنْ بِالْمَكَانِ أَيُّ أَثَرِ لَطْعَامٍ ، وَإِنَّمَا قَدَرُ حَدِيدِيَّةٍ كَبِيرَةٍ وَضِعَتْ عَلَى
النَّارِ وَقَضِييَانِ كَبِيرَانِ أُعِدَّا لِرَفْعِهَا .

وَبَعْدَ فِتْرَةٍ بَدَأُوا فِي الْغِنَاءِ .

غَنَى الْقَائِدُ : « أَيْنَ اللَّحْمُ الَّذِي سَنَأْكُلُهُ ؟ »

رَدَّدَ الْآخَرُونَ : « سَيَصِلُ الطَّعَامُ ! »

تَابَعَ الْقَائِدُ : « كَيْفَ سَيَأْتِي اللَّحْمُ ؟ »

رَدَّدَ الْآخَرُونَ : « سَنَذْبُحُ الْفَرِيسَةَ ! »

« هَلِ اللَّحْمُ مُعَدٌّ لِلطَّهْيِ ؟ »

« إِنَّهُ مُعَدٌّ ! إِنَّهُ مُعَدٌّ ! »

« هَلِ حَمَتِ الْقِدْرُ لِنَطْهَوِ اللَّحْمَ ؟ »

« لَقَدْ حَمَتْ ! لَقَدْ حَمَتْ ! »

قَالَ لِيُو : « اِسْمَعْ يَا هُولِي ، تَذَكَّرِ الْكِتَابَةَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى
الصُّنْدُوقِ . لَقَدْ ذُكِرَ فِيهَا : « وَالْقَوْمُ الَّذِينَ يَضَعُونَ الْقِدْرَ عَلَى
رُؤُوسِ الْعُرَبَاءِ » . »

وَمَا إِنَّ أُنْثَى عِبَارَتُهُ حَتَّى قَفَزَ رَجُلَانِ وَأَبْعَدَا الْقِدْرَ عَنِ النَّارِ . وَفِي



الْلُحْظَةِ نَفْسِهَا أُخْرِجَتِ الْمَرْأَةُ ، الَّتِي كَانَتْ تَجْلِسُ إِلَى جِوَارِ مُحَمَّدٍ ،
حَبْلًا مِنْ بَيْنِ طَيَّاتٍ مَلَأْسِيهَا وَوَضَعَتْهُ فَوْقَ كَتِفَيْهِ ، وَحَمَلَ الرَّجُلَانِ
الْقِدْرَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ مُحَمَّدٌ يُنَاضِلُ فِيهِ . وَكَانَا يَقْصِدَانِ وَضَعَ
الْقِدْرِ الْمُحَمَّمَةِ إِلَى دَرَجَةِ الْإِخْمَارِ فَوْقَ رَأْسِهِ . وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ قَدْ
دَبَّرَتْ هَذَا اتِّقَامًا مِنْ جُوبٍ لِمَا فَعَلَهُ بِهَا .

هَبَيْتُ وَقِفًا وَأُطْلَقْتُ النَّارَ عَلَى تِلْكَ الْمَرْأَةِ الشَّرِيرَةِ الَّتِي كَانَتْ
تُطَوِّقُ مُحَمَّدًا بِذِرَاعَيْهَا ، فَخَرَّتْ صَرِيعةً ، وَقَفَزَ مُحَمَّدٌ فِي الْهَوَاءِ ،
وَعَرَّ هُوَ أَيْضًا صَرِيعةً ؛ فَقَدْ أَخْتَرَقَتِ الرِّصَاصَةُ — الَّتِي أَطْلَقْتُهَا مِنْ
مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ — جَسَدَيْهِمَا .

وَكَانَ يَقِفُ رَجُلٌ عَلَى مَقَرَّةٍ مِّنَّا يُمَسِّكُ رُمْحَهُ .

صَبَحْتُ بِزِمِيلِي أَنْ يَقْفِرَا . وَكَانَ حَشْدٌ مِنَ الرِّجَالِ يُسُدُّ مَدْخَلَ
الْكَهْفِ ؛ لِذَا أُخِذْتُ أُعَدُّوْا فِي الْكَهْفِ . وَقَدْ شَعَرْتُ بِحَرَارَةِ الْقَدْرِ
تَلْفَحُ رِجْلِي عِنْدَمَا قَفَرْتُ فَوْقَ جُتَّةِ مُحَمَّدٍ . وَكَانَ فِي نِهَآيَةِ الْكَهْفِ
رَفٌّ صَخْرِيٌّ يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهُ نِصْفَ مِثْرٍ ، وَعَرْضُهُ مِثْرًا ، فَقَفَرْنَا نَحْنُ
الْثَلَاثَةُ فَوْقَهُ مُسْتَعِدِّينَ لِلْقِتَالِ حَتَّى النِّهَآيَةِ .

تَوَقَّفَ الرِّجَالُ لِحَظَّةٍ عِنْدَمَا رَأَوْا نُوَاجِهُهُمْ . وَرَأَيْنَا ظِلَالَهُمْ الطَّوِيلَةَ
تَمْتَدُّ وَتَنْتَهِي عِنْدَ النَّارِ ، وَرَأَيْنَا الْقَدَرَ الْمُحَمَّاتِ تُشِعُّ بِالْحَرَارَةِ وَسَطَ
الظَّلَامِ .

كَانَ لِيُوْ يُمَسِّكُ سِكِّينَهُ الْكَبِيرَةَ بِيَدِهِ الْيُمْنَى . وَقَالَ لِي : « وَدَاعًا
يَا هُوْلِي . لَيْسَ لَدَيْنَا أَمَلٌ فِي النِّجَآةِ مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ . سَوْفَ يُجْهَرُونَ
عَلَيْنَا فِي بَضْعِ دَقَائِقٍ ، ثُمَّ يَلْتَهُمُونَنَا بَعْدَ ذَلِكَ . سَامِخْنِي لِأَنْتَنِي قُدْتُكَ
إِلَى هَذَا الْمَصِيرِ . وَدَاعًا يَا جُوب . »

رَفَعَ جُوبُ مُسَدَّسَهُ وَأَطْلَقَهُ ، فَأَلْدَفَعَ نَحُونَا حَشْدُ الرِّجَالِ .

وَقَفَرَزَ رَجُلٌ ضَخْمٌ عَلَى الرَّفِّ الصَّخْرِيِّ فَعَاجَلَهُ لِيُوْ بِطَعْنَةٍ مِنْ سِكِّينِهِ
نَفَذَتْ إِلَى أَعْمَاقِ الرَّجُلِ .

وَعِنْدَمَا نَفَذَ رِصَاصُ مُسَدَّسِي اسْتَعْدَمْتُ سِكِّينِي فِي الْقِتَالِ .

وَلَا أَعْرِفُ مَاذَا حَدَّثَ لِجُوبِ ، وَأَحْسَبُ أَنَّهُ رَفَدَ سَاكِنًا وَتَظَاهَرَ
بِالْمَوْتِ . وَطَعَنْتُ رَجُلًا بِسِكِّينِي طَعْنَةً قَوِيَّةً ، فَهَوَى عَلَى الْأَرْضِ
وَالسَّكِينُ مُنْعَرِزَةٌ فِي جَسَدِهِ . وَوَثَبَ عَلَيَّ رَجُلَانِ ، فَطَوَّقَتْهُمَا
بِذِرَاعِي ، وَسَقَطْنَا عَلَى أَرْضِ الْكَهْفِ نَتَدَخَّرُ . وَكَانَا قَوِيَّيْنِ ، وَلَكِنِّي
كُنْتُ نَائِرًا مِنَ الْغَضَبِ . وَشَعَرْتُ بِعِظَامِهِمَا تَتَحَطَّمُ وَأَنَا أَضْغَطُّ عَلَى
جَسَدَيْهِمَا . وَكَفَا عَنِ الْمَقَاوِمَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ أَتْرُكْهُمَا

أَذْرْتُ رَأْسِي ، فَرَأَيْتُ لِيُوْ ، بَعْدَ أَنْ نَزَلَ عَنِ الرَّفِّ الْحَجْرِيِّ ،
يَتَصَارَعُ فِي وَسْطِ الْكَهْفِ مَعَ حَشْدٍ مِنَ الرِّجَالِ . رَأَيْتُ وَجْهَهُ الْوَسِيمَ
وَشَعْرَهُ الْأَصْفَرَ الذَّهَبِيَّ فَوْقَ هَامَتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَعْلُو هَامَاتِ الرِّجَالِ .
أَخَذَ يُقَاتِلُ بِقُوَّةٍ خَارِقَةٍ حَتَّى فَقَدَ سِكِّينَهُ ، فَأَعْتَقَدْتُ أَنَّ نِهَآيَتَهُ قَدْ



دَتَتْ . وَلَكِنَّهُ أَفْلَتَ مِنْ مُهَاجِمِيهِ ، وَأَمْسَكَ جُثَّةَ رَجُلٍ كَانَ قَدْ قَتَلَهُ ،
وَرَفَعَهَا عَالِيًا ، وَقَذَفَهُمْ بِهَا ، فَأَوْقَعَتْ خَمْسَةً أَوْ سِتَّةَ مِنْهُمْ أَرْضًا .
وَنَهَضُوا بِأَسْنَانِهِ وَاحِدٍ وَعَاوَدُوا الْهَجُومَ عَلَيْهِ مُجْتَمِعِينَ فِي صِمَتٍ ،
وَرَأَيْتُهُ يَتَهَاوَى تَحْتَ ثِقَلِهِمْ ، فَأَمْسَكُوا ذِرَاعِيهِ وَسَاقِيهِ .

صَاحَ رَجُلٌ : « رُمَحًا ! إِلَيَّ بِرُمَحٍ لِأَقْتُلَهُ ، وَيَقْدِرُ لِأَتَلْقَى فِيهَا
دَمَهُ . »

أَغْمَضْتُ عَيْنِي ، وَتَنَاهَيْتُ إِلَى سَمْعِي صَوْتَ صِرَاعٍ . وَعِنْدَمَا فَتَحْتُ
عَيْنِي ، كَانَتِ الْمَرْأَةُ الَّتِي تُدْعَى أَوْسْتَانُ قَدْ أَلْقَتْ بِنَفْسِهَا فَوْقَ لِيُو
لِتَحْمِيَةِ بِجَسَدِهَا . وَأَخَذُوا يَجْذِبُونَهَا لِيُبْعِدُوهَا عَنْهُ ، وَلَكِنَّهَا تَشَبَّهَتْ
بِهِ بِأَن طَوَّقَتْ عُنُقَهُ بِذِرَاعَيْهَا ، وَلَفَتْ سَاقِيهَا حَوْلَ سَاقِيهِ .

صَاحَ رَجُلٌ : « أَنْفِذُوا الرُّمَحَ فِي جَسَدِي الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ، وَعِنْدَئِذٍ
سَيَتَّحِدَانِ فِي الْمَوْتِ . »

رَأَيْتُ رَجُلًا فِي يَدِهِ رُمَحٌ بَسَطَ قَامَتَهُ وَرَفَعَ ذِرَاعَهُ . وَرَأَيْتُ وَهَجَ
النَّارِ يَتَعَكِّسُ عَلَى نَصْلِ الرُّمَحِ الْالَامِعِ .

أَغْمَضْتُ عَيْنِي ، وَسَمِعْتُ ، وَأَنَا مُغْمَضُ الْعَيْنَيْنِ ، صَوْتًا يَصِيحُ :
« كَفَى ! »

إِسْوَدَّتِ الدُّنْيَا أَمَامَ نَاضِرِي ، وَفَقَدْتُ الْوَعْيَ .

الفصل الثاني عشر بِفِدِّ الْمَعْرَكَةِ

فَتَحْتُ عَيْنِي فَوَجَدْتُ نَفْسِي رَاقِدًا عَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْجِلْدِ لَا تَبْعُدُ
كَثِيرًا عَنِ النَّارِ . وَكَانَ لِيُو رَاقِدًا بِالْقُرْبِ مِنِّي مُغْمَضُ الْعَيْنَيْنِ ، وَكَانَتْ
أَوْسْتَانُ تَجْلِسُ بِجَوَارِهِ تُنْظِفُ جُرْحًا فِي جَنْبِهِ . أَمَّا جُوبُ فَقَدْ وَقَفَ
خَلْفَهُ يَرْتَجِفُ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَصَابَهُ أَذَى . وَفِي الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنْ
الْمَكَانِ كَانَتْ جُثَّتُ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَتَلْنَاهُمْ خِلَالَ الْمَعْرَكَةِ الرَّهِيبةِ الَّتِي
خُضْنَاهَا مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ . وَأَخْصَيْتُ عَدَدَ تِلْكَ الْجُثَثِ فَوَجَدْتُهَا اثْنَتَيْ
عَشْرَةَ جُثَّةً ، بِالإِضَافَةِ إِلَى جُثَّةِ الْمَرْأَةِ وَجُثَّةِ مُحَمَّدٍ الْخَادِمِ الْمِسْكِينِ .
وَكَانَ عَنْ شِمَالِنَا عَدَدٌ مِنَ الرِّجَالِ يَتَوَلَّوْنَ جِرَاسَةً مِنْ ظِلٍّ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ
مِنْ بَيْنِ الَّذِينَ هَاجَمُونَا ، وَكَانَ يَلَالِي يُشْرِفُ عَلَى عَمَلِيَّةِ تَقْيِيدِ أَذْرُعِهِمْ
خَلْفَ ظُهُورِهِمْ ، وَلَمَّا شَاهَدَنِي أَنَّهُضُ قَدَمَ إِلَيَّ وَقَالَ :

« أَرْجُو أَنْ تَكُونَ أَحْسَنَ حَالًا آلَانَ . »

قُلْتُ : « أَشْكُرُكَ أَيُّهَا الْوَالِدُ عَلَى إِتْقَانِ حَيَاتِنَا ؛ فَلَوْلَاكَ لَقَضَى هَؤُلَاءِ

الشَّيَاطِينُ عَلَيْنَا فِي دَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا قَتَلُوا خَادِمَنَا . »

قَالَ : « سَوْفَ يُقْتَصُّ مِنْهُمْ لِقَتْلِهِمْ خَادِمُكُمْ . إِنَّهُمْ سَيُؤْخَذُونَ إِلَى « شَيْ » ، وَعِنْدَيْدُ سَيَتَمَنُّونَ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يُولَدُوا أَبَدًا . وَآلآنَ قُصِّرْ عَلَيَّ مَا حَدَثَ . » وَحَكَيْتُ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ .

قَالَ : « يَجِبُ أَنْ تُدْرِكَ أَنَّ هُنَاكَ تَقْلِيدًا يَقْضِي بِأَنْ يُقْتَلَ بِالْقَدْرِ كُلُّ غَرِيبٍ يَفْدُ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ . إِنِّي شَخْصِيًّا أَعْتَقِدُ أَنَّهُ تَقْلِيدٌ كُلُّهُ سَرٌّ ، وَقَدْ أَصْدَرْتُ « شَيْءٌ أَلْتِي يَجِبُ أَنْ تُطَاعَ » أَوَامِرَهَا بِعَدَمِ قَتْلِكُمْ . إِنْ هَؤُلَاءِ الْأَسْرَى سَيَتَمَنُّونَ لَوْ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا فِي الْمَعْرَكَةِ . آه ! وَلَكِنَّهُ كَانَ قِتَالًا رَائِعًا . هَلْ تَعْرِفُ أَيُّهَا الْقِرْدُ الطَّوِيلُ الذَّرَاعَيْنِ أَنَّكَ حَطَّمْتَ عِظَامَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ كَمَا يُحْطَمُ الرَّجُلُ مِنْ قِشْرَةِ بَيْضَةٍ ؟ ! وَهَذَا الشَّابُّ أَيْضًا ؛ هَذَا الْأَسَدُ ، كَمْ كَانَ جَمِيلًا أَنْ تَرَاهُ صَامِدًا وَحَدَهُ أَمَامَ الْعَدِيدِ مِنَ الْمُهَاجِمِينَ . إِنْ تِلْكَ الْمَعْرَكَةُ الَّتِي قَاتَلْتُمَا فِيهَا بِيرَاعِيَّةٍ أَكْسَبَتْكُمَا صِدَاقِي . »

ثُمَّ سَأَلَنِي عَنْ مُسَدِّسَيْنَا ، وَكَيْفَ قَتَلَ الرَّجَالُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ مُتَعَبًا فَلَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أُشْرَحَ لَهُ .

فَتَحَ لِي وَغَيْبِيهِ ، فَقَامَ جُوبٌ ، بِمُسَاعَدَةِ أَوْسْتَانٍ ، بِنَقْلِهِ إِلَى الْفِرَاشِ ، وَذَهَبْتُ أَنَا إِلَى غُرْفَتِي الصَّغِيرَةِ . وَفِي الصَّبَاحِ شَعَرْتُ بِوَعَكَةٍ ، وَلَمْ أُسْتَطِعْ التَّهَوُّضَ ، حَتَّى إِنِّي تَظَاهَرْتُ بِالنَّوْمِ عِنْدَمَا

دَخَلَ بِلَالِي إِلَى الْغُرْفَةِ ، فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيَّ ، وَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ قَائِلًا :

« كَمْ أَحَبُّ هَذَا الْقِرْدُ ! وَكَمْ أَتَمَنَّى أَلَّا تُمَارِسَ « شَيْءٌ » سِحْرَهَا فِيهِ ! »

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ وَقُلْتُ : « صَبَاحُ الْخَيْرِ يَا وَالِدِي . »

قَالَ : « لَقَدْ جِئْتُ لِأُطْمِئِنَّ عَلَيْكَ . لَقَدْ أَمَرْتُ « شَيْءٌ » بِأَنْ أَخَذَكَ إِلَيْهَا عَلَى الْفَوْرِ ، وَلَكِنِّي لَا أَعْتَقِدُ أَنَّكَ فِي حَالَةٍ تَسْمَحُ لَكَ بِالْحَرَكَةِ بَعْدَ . »

قُلْتُ : « لَيْسَ بَعْدَ — وَلَكِنِّي أُرْسِلُ إِلَيْكَ أَنْ تُنْقِلَنِي مِنْ هَذِهِ الْحَجَرَةِ الضَّيِّقَةِ إِلَى ضَوْءِ الشَّمْسِ . إِنِّي لَا أَحِبُّ هَذَا الْمَكَانَ . »

قَالَ : « نَعَمْ ، إِنَّهُ مَكَانٌ كَثِيبٌ . عِنْدَمَا كُنْتُ صَغِيرًا عَثَرْتُ عَلَى جُثَّةِ أَمْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ فِي هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ الْآنَ . وَكُنْتُ آتِي إِلَى هُنَا وَأَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا . وَكَانَتْ تَبْدُو كَمَا لَوْ كَانَتْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ بِأَسْثِنَاءٍ أَنْ جَسَدَهَا كَانَ بَارِدًا ، وَبَشَرَتُهَا شَاحِبَةً ، وَشَعْرُهَا أَصْفَرٌ طَوِيلًا يَصِلُ إِلَى قَدَمَيْهَا ، لَقَدْ أَحْبَبْتُهَا تَقْرِيًّا . وَذَاتَ يَوْمٍ أَكْتُشِفْتُ وَالَّذِي هَذَا الْمَكَانَ ، وَأَسْنَدْتُ جُثَّةَ الْمَرْأَةِ إِلَى الْحَائِطِ ، وَأَنْتَ بِمِشْغَلٍ وَأَضْرَمْتَ النَّارَ فِي شَعْرِهَا ، وَاحْتَرَقَ الْجَسَدُ كُلُّهُ — احْتَرَقَ بِتَالِقٍ كَمَا لَوْ كَانَ مَصْنُوعًا مِنَ الشَّمْعِ . إِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ تُحَفِظُ أَجْسَادَهُمْ مِنَ التَّحَلُّلِ يَحْتَرِقُونَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ . انْظُرْ هَاهُنَا هِيَ ذِي آثَارِ دُخَانٍ الْإِحْتِرَاقِ

بِالسَّقْفِ . « وَنَظَرْتُ إِلَى أَعْلَى ، وَرَأَيْتُ آثَارًا سَوْدَاءَ اتَّسَاعُهَا نِصْفُ
مِثْرٍ .

وَوَاصِلَ حَدِيثِهِ قَائِلًا : « عِنْدَمَا عُدْتُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ كَانَتْ الْجُئَةُ
قَدْ اخْتَرَقَتْ تَمَامًا بِاسْتِثْنَاءِ قَدَمَيْهَا ، فَأَخْفَيْتُ إِحْدَاهُمَا تَحْتَ الرَّفِّ
الصَّخْرِيِّ ، وَلَعَلَّهَا لَا تَزَالُ فِي مَكَانِهَا . « ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ تَحْتَ الرَّفِّ
الصَّخْرِيِّ حَيْثُ كُنْتُ رَاقِدًا ، وَقَالَ : « هَا هِيَ ذِي ! » وَوَضَعَ شَيْئًا
فِي يَدِي . وَكَانَ هَذَا الشَّيْءُ قَدَمًا بَدَتْ أَخْفَ مِنْ قَدَمِ الْإِنْسَانِ الْحَيِّ ،
وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تُحْتَفِظُ بِشَكْلِهَا وَلَوْنِهَا .

ثَرَى فِي أَيِّ دُرُوبِ الْحَيَاةِ تَرَدَّدَ وَقَعَ خُطُوتُهَا ؟ أَيُّ حَظٍّ تَعِسَ ذَلِكَ
الَّذِي أَصَابَ تِلْكَ الْقَدَمَ الصَّغِيرَةَ !

الفصل الثالث عشر الرَّحْلَةُ إِلَى حُور

أُخْضِرْتُ خَمْسَ مَحَافٍ ، وَوَضِعْتُ أَمَامَ مَدْخَلِ الْكَهْفِ . وَكَانَ
ثَمَّةَ خَمْسُونَ حَارِسًا مُسْتَعِدُونَ لِمُرَافَقَتِنَا .

سَأَلْتُ بِلَالِي : « هَلْ سَتَصْحَبُنَا أُوسْتَان ؟ »

أَجَابَ : « إِذَا شَاءَتْ : فَهِيَ زَوْجَتُهُ وَفَقًّا لِقَوَانِينِنَا . إِنَّهَا فَتَاةٌ
شُجَاعَةٌ ، وَتُحِبُّ هَذَا الْأَسَدَ . وَقَدْ أُنْقَذَتْ حَيَاتُهُ ؛ لِذَا فَإِنَّ لَهَا الْحَقَّ
فِي أَنْ تُرَافِقَهُ أَيْنَمَا يَذْهَبُ ، مَا لَمْ تُعْتَرِضْ « شَيْءٌ » . »

بَدَأْنَا رِحْلَتَنَا بِأَنْ تَرْلُنَا مِنْ جَانِبِ التَّلِّ ، ثُمَّ صَعِدْنَا الْجَانِبَ الْآخَرَ
حَيْثُ رَأَيْنَا سَهْلًا مُعْشِيًا يَمْتَدُّ مَسَافَةً بَعِيدَةً ، وَيَنْتَهِي إِلَى أَرْضٍ
مُنْحَفِضَةٍ .

وَأَجْتَرْنَا ذَلِكَ السَّهْلَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى حُدُودِ أَرْضٍ مُنْحَفِضَةٍ مَلِيَّةٍ
بِالْمُسْتَنْقَعَاتِ . وَهُنَاكَ اسْتَرَحْنَا ثُمَّ وَاصَلْنَا رِحْلَتَنَا فِي أَرْضٍ أَسْوَأَ مِنْ
تِلْكَ الَّتِي أَجْتَرْنَاهَا بِالْقَارِبِ . وَكَانَتْ رَائِحَةُ الْعَفْنِ تُحِيطُ بِنَا مِنْ كُلِّ

جَانِبٍ ، وَثَعَابِينَ أَلْمَاءِ السَّوْدَاءِ السَّامَّةُ تَشُقُّ طَرِيقَهَا وَسَطَ أَلْمِيَاهِ فِي سُرْعَةٍ بِالْعَةِ . وَلَمْ تَكُنْ نَسْمَعُ سِوَى نَقِيقِ عَالٍ لِضَفَادِعَ مِنْ أَصْحَحِمَ مَا رَأَيْتُ فِي حَيَاتِي ، وَكَذَا صَيِّحَاتِ الطُّيُورِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا .

وَعِنْدَ الْغُرُوبِ وَصَلْنَا إِلَى أَرْضٍ جَافَةٍ ، وَكَانَتْهَا جَزِيرَةٌ وَسَطَ هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُقْفِرَةِ . وَقَضَيْنَا عَلَيْهَا لَيْلَتَنَا جَالِسِينَ أَوْ رَاقِدِينَ حَوْلَ النَّارِ . وَحَالَ نَقِيقُ الضَّفَادِعِ الْمُرْتَفِعُ ، وَلَدَغَاتُ الْحَشَرَاتِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّوْمِ .

نَظَرْتُ إِلَى لِيُو الرَّاqِدِ بِجَوَارِي : كَانَتْ عَيْنَاهُ لَامِعَتَيْنِ ، وَوَجْهُهُ أَحْمَرَ وَشَفَتَاهُ جَافَتَيْنِ ، فَقَدْ أَصِيبَ بِالْمَلَارِيَا . وَكَانَتْ وَطَاءُ الْمَرَضِ شَدِيدَةً عَلَيْهِ ، وَجَلَسْتُ أَوْسْتَانِ إِلَى جَوَارِهِ قَلَقَةً . أَخِيرًا اسْتَطَعْتُ النَّوْمَ قَلِيلًا ، وَاسْتَيْقَظْتُ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ . وَكَانَ لِيُو جَالِسًا يُمَسِّكُ بِرَأْسِهِ بَيْنَ رِاحَتَيْهِ .

سَأَلْتُهُ : « كَيْفَ حَالُكَ ؟ »

أَجَابَ : « مَرِيضٌ جِدًّا ، وَأَشْعُرُ كَأَنِّي مُشْرِفٌ عَلَى الْمَوْتِ . » وَكَانَ جُوبٌ مَرِيضًا أَيْضًا ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِثْلَ لِيُو .

سَأَلْتُ بِلَالِي : « هَلْ يَسْتَطِيعَانِ مُوَاصَلَةَ الرَّحْلَةِ ؟ »

أَجَابَ : « يَجِبُ أَنْ يُوَاصِلَا الرَّحْلَةَ ، فَالْبَقَاءُ هُنَا يَعْنِي الْمَوْتَ . »



وَاصَلْنَا السَّيْرَ حَتَّى بَلَّغْنَا مَنَظِقَةً شَدِيدَةَ الْخُطُورَةِ : كَانَ الرِّجَالُ يَخُوضُونَ فِي أَلْمَاءِ حَتَّى رُكِبَهُمْ ، وَسَارَ أَمَامَهُمْ دَلِيلَانِ يُمَسِّكَانِ بِعَصَوَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ يَجُسَّانِ بِهِمَا الْقَاعَ .

فَجَاءَ سَمِعْنَا صَرْخَةً أَغْبَثَتْهَا صَيِّحَاتُ عَدِيدَةٍ . وَتَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ أَحَدَ الْحَمَّالِينَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ مِحْفَةً بِلَالِي دَاسَ بِقَدَمِهِ ثُغْبَانًا . وَسَقَطَ الْحَمَّالُ فِي أَلْمَاءِ ، وَسَقَطَ وَرَاءَهُ بِلَالِي بِمِحْفَتِهِ . وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى حَافَةِ أَلْمَاءِ لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أَتَبَيَّنَ بِلَالِي أَوْ الْحَمَّالَ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَمْ يَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَحَدٌ . أَمَّا بِلَالِي فَقَدْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُحَدِّدَ مَوْقِعَهُ مِنَ الْمِحْفَةِ الَّتِي رَأَيْتُهَا طَافِيَةً فَوْقَ سَطْحِ أَلْمَاءِ ، وَقَدْ عَلَتْهَا قِطْعَةُ الْقِمَاشِ الَّتِي كَانَتْ

تُسْتَعْدَمُ مِظْلَةً تَقِي الْجَالِسَ تَحْتَهَا مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَرِ
بِلَالِي نَفْسَهُ .

وَصَاحَ أَحَدُ الرِّجَالِ : « هَا هُوَ ذَا هُنَاكَ ! هُنَاكَ ! » وَلَمْ يَفْعَلِ
الرَّجُلُ شَيْئًا لِإِنْقَاذِ بِلَالِي .

صَبَحَتْ فِيهِمْ : « أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ ! » ثُمَّ قَفَزَتْ إِلَى الْمَاءِ ، وَسَرَّعَانَ
مَا وَصَلَتْ إِلَى الْمِظْلَةِ الَّتِي كَانَ بِلَالِي يُجَاهِدُ تَحْتَهَا لِيَنْجُوَ بِحَيَاتِهِ .
وَأَسْتَطَعْتُ أَنْ أَخْلَصَهُ مِنْهَا ، ثُمَّ جَذَبْتُهُ إِلَى الْيَابِسَةِ .

وَقَفَ بِلَالِي يَصِيحُ وَالْمِيَاءُ الْقَدِيرَةُ تَتَسَاقَطُ مِنْ لِحْيَتِهِ : « أَيُّهَا
الْكِلَابُ ! لَقَدْ تَرَكْتُمُونِي أَنَا وَالِدُكُمْ ، لِأَغْرَقَ . لَنْ أَغْفَرَ لَكُمْ ذَلِكَ
أَبَدًا . أَمَّا أَنْتَ يَا وَلَدِي ، فَسَأَكُونُ صَدِيقَكَ إِلَى الْأَبَدِ . لَقَدْ أَنْقَذْتَ
حَيَاتِي ، وَقَدْ يَأْتِي يَوْمٌ أَنْقُذَ فِيهِ حَيَاتَكَ . »

الفصل الرابع عشر مَوْطِنُ « شَيْي »

خَرَجْنَا مِنَ الْأَرْضِ الْمُنْحَفِضَةِ ، قَبْلَ الْغُرُوبِ ، إِلَى سَهْلٍ يَرْتَفِعُ
تَدْرِيجِيًّا فِي شَكْلِ مُتَمَوِّجٍ ، وَتَوَقَّفْنَا لِنَقْضِي اللَّيْلَ تَحْتَ الْأَشْجَارِ .
وَأَمْضَيْتُ اللَّيْلَ أَعَاوُنُ أَوْسْتَانِ فِي تُمْرِضِ لِيُوَ الَّذِي سَاءَتْ حَالَتُهُ
كثيرًا . وَفِي الصَّبَاحِ كَانَتْ حَالَتُهُ قَدْ زَادَتْ سَوْءًا .

وَبَعْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ بِقَلِيلٍ كُنَّا قَدْ وَصَلْنَا إِلَى قِمَّةِ تَلٍّ مُعْشَبٍ وَرَأَيْنَا
أَسْفَلَ قَرْيَةٍ غَنِيَّةٍ بِالْعُشْبِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَزْهَارِ . وَعَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ كَانَ
ثَمَّةَ جَبَلٍ غَرِيبِ الشَّكْلِ : كَانَ مُسْتَدِيرًا ، يَبْلُغُ مُحِيطُهُ حَوَالِي عَشْرَةِ
كِيلُومِتْرَاتٍ ، وَلَهُ جَوَانِبُ تَرْتَفِعُ فِي وَسْطِ السَّهْلِ مُسْتَقِيمَةً كَالْجُدْرَانِ .
أَمَّا قِمَّةُ هَذَا الْجَبَلِ فَكَانَتْ مُحْتَفِيَّةً وَسَطَ سُحْبِ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ .
وَلَبَيْنَا كُنْتُ جَالِسًا عَلَى مِحْفَتِي أَنْظُرُ إِلَيْهَا جَاءَ بِلَالِي وَقَالَ :

« هَذَا هُوَ الْمَنْزِلُ الَّذِي تَسْكُنُهُ « شَيْي » الَّتِي يَجِبُ أَنْ نَطَاعَ » .

قُلْتُ : « إِنَّهُ رَائِعٌ ، وَلَكِنَّ تِلْكَ الصُّخُورَ مِنَ الصَّعْبِ تَسْلُقُهَا . »

يَسْلُكُهُ النَّاسُ لِلْوُصُولِ إِلَى الصُّخُورِ . وَشَيَّدُوا الْمَدِينَةَ فَوْقَ جُزْءٍ مِنَ
الْأَرْضِ الَّتِي انْحَسَرَتْ عَنْهَا مِيَاهُ الْبَحِيرَةِ ، أَمَّا بَقِيَّةُ الْأَرْضِ فَقَدْ صَارَتْ
خُفُولًا وَمَرَاعِي . »

وَوَصَلْنَا فِي النَّهَائَةِ إِلَى وَاجِهَةِ الْجِدَارِ الصَّخْرِيِّ لِلْجَبَلِ ، وَرَأَيْنَا فُتْحَةً
مُظْلِمَةً يَجْرِي فِي وَسْطِهَا نَهْرٌ صَغِيرٌ ، يَنْحَرِفُ فِي مَسَارِهِ بَعْدَ الصَّخْرَةِ
لِيَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مَسَارًا جَدِيدًا بَعِيدًا عَنِ الْمَجْرَى الْجَائِزِ . وَرَأَيْنَا أَيْضًا
طَرِيقًا يَرْتَفِعُ عَنْ مُسْتَوَى ذَلِكَ النَّهْرِ الصَّغِيرِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ الْحَمَالُونَ الْمَحَافَّ الَّتِي كَانُوا يَحْمِلُونَهَا عَلَيْهَا ، أَقْبَلَ
بِلَالِي نَحْوِي وَأَبْلَغَنِي أَنَّهُ يَجِبُ عَصَبُ أَغْنِينَا حَتَّى لَا نَعْرِفَ أَسْرَارَ
الْمَدْخَلِ . وَمَا إِنَّ تَمَّ ذَلِكَ حَتَّى وَاصَلْنَا السَّيْرَ وَقَدْ تَمَلَّكْنَا شُعُورَ غَرِيبٍ
وَهُمْ يَحْمِلُونَا فِي قَلْبِ تِلْكَ الصَّخْرَةِ وَلَا نَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ وَجْهَتِنَا .
وَكُنْتُ جَالِسًا أَنْصِتُ إِلَى خُطُواتِ الرِّجَالِ وَأَنْدِفَاعِ الْمِيَاهِ ، وَسَرَّعَانَ
مَا أَخَذَ الرِّجَالُ فِي الْغِنَاءِ بِصَوْتِ ذِي نَعَمَاتٍ حَزِينَةٍ وَغَرِيبَةٍ كَأَنَّهُ
تُرْدُّهَا الْجُدُرَانِ الصَّخْرِيَّيْنِ . وَوَاصَلْنَا طَرِيقَنَا نَنْحَرِفُ يَمِينًا تَارَةً وَيَسَارًا
تَارَةً أُخْرَى حَتَّى لَا يَنْطَبِعَ فِي ذَاكِرَتِي خَطُّ السَّيْرِ الَّذِي سَلَكَنَاهُ فِي
رَحْلَتِنَا .

وَشَعَرْتُ بَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ أَنَّنَا قَدْ خَرَجْنَا إِلَى الْخَلَاءِ ، وَسَطَعَ الضَّوُّ
فَوْقَ الْعِصَابَةِ الَّتِي عَلَى عَيْنِي ، ثُمَّ سَمِعْتُ بِلَالِي يُصْدِرُ أَوَامِرَهُ لِلرِّجَالِ
بِرَفْعِ الْعِصَابِ عَنْ أَغْنِينَا .



قَالَ : « أَنْظُرْ إِلَى ذَلِكَ الْمَمَرِّ تَحْتَنَا . »

وَنَظَرْتُ فَشَاهَدْتُ مَا بَدَأَ مِثْلَ مَجْرَى نَهْرٍ جَائِزٍ ، أَوْ مَجْرَى مَائِي
مِنْ صَنَعِ الْإِنْسَانِ .

وَتَوَلَّى بِلَالِي تَوْضِيحَ ذَلِكَ لِي فَقَالَ : « كَأَنَّهُ تَمَّةٌ بُحِيرَةٌ وَسَطُ
سِلْسِلَةٍ هَذِهِ الصُّخُورِ ، وَكَانَ قَاعُ الْبَحِيرَةِ أَعْلَى مِنْ سَطْحِ السَّهْلِ .
وَقَامَ النَّاسُ الَّذِينَ بَنَوْا مَدِينَةَ حُورٍ بِشَقِّ طَرِيقٍ عَبْرَ سَفْحِ الْجَبَلِ فَأَنْسَابَ
فِيهِ الْمَاءِ مِنَ الْبَحِيرَةِ ، وَأَخَذَتْ هَذِهِ الْأَرْضُ الْمُنْخَفِضَةَ الْخَطِيرَةَ الَّتِي
جِئْنَا عَبْرَهَا . وَعِنْدَمَا نَضَبَتْ مِيَاهُ الْبَحِيرَةِ خَلَقَتْ هَذَا الْمَمَرَّ الَّذِي



وَبَيَّنْتُ أَنَّا دَاخِلَ الْجِدَارِ الصَّخْرِيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ مُرْتَفِعًا مِنَ الدَّاخِلِ
كَمَا هُوَ مِنَ الْخَارِجِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ قَاعَ الْبَحِيرَةِ أَلْجَافٌ كَانَ أَعْلَى مِنْ
مُسْتَوَى أَرْضِ السَّهْلِ . وَخَيْلٌ لِي أَنَّنِي رَأَيْتُ فِي وَسْطِ السَّهْلِ بَعْضَ
الْأَطْلَالِ ، أَمَّا بَقِيَّةُ السَّهْلِ فَقَدْ كَانَ مُقَسَّمًا إِلَى حُقُولٍ وَحَدَائِقٍ .

وَلَمْ يَتَسِعِ الْوَقْتُ لِأَرَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ؛ إِذْ أَحَاطَ بِنَا بَعْضُ أَفْرَادِ
شُعْبِ الْأَمَاهِجِرِ ، وَكَانُوا يُشَبِّهُونَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ رَأَيْنَاهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ فِي
الْكَهْفِ .

عِنْدَئِذٍ أَقْبَلْتُ نَحُونَا مَجْمُوعَةً مِنَ الرُّجَالِ الْمُسَلَّحِينَ بِصُحْبَةِ قَائِدٍ :
كَانُوا خُرَّاسَ « شَيْ » . وَأَتَجَّهَ قَائِدُهُمْ إِلَى بِلَالِي وَحَيَّاهُ ، ثُمَّ اسْتَدَارَتْ

الْمَجْمُوعَةُ وَسَارَتْ بِمُحَاذَاةِ الصَّخْرَةِ يَتَّبِعُهُمُ الْحَمَّالُونَ الَّذِينَ كَانُوا
يَحْمِلُونَنَا . وَبَعْدَ أَنْ سَرْنَا مَسَافَةَ كِيلُومِترٍ تَقْرِيبًا تَوَقَّفْنَا عِنْدَ كَهْفٍ
هَائِلٍ ، يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهُ مَدْخَلَهُ حَوَالِ ثَمَانِيَةِ عَشَرَ مِترًا ، وَعَرْضُهُ أَرْبَعَةَ
وَعِشْرِينَ مِترًا . وَهُنَا طَلَبَ مِنَّا بِلَالِي أَنْ نَنْزِلَ بِاسْتِثْنَاءِ لِيُوَ الَّذِي حُمِلَ
إِلَى دَاخِلِ الْكَهْفِ .

كَانَ الْكَهْفُ مُضَاءً بِوَاسِطَةِ الْمَشَاعِلِ ، وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ مُعْطَاةً
بِبَعْضِ الصُّوَرِ . وَكَانَتْ مُعْظَمُهَا صُورَ صَيْدٍ وَرَقْصٍ ، وَكَانَ الْقَلِيلُ مِنْهَا
صُورَ مَعَارِكٍ . وَفَهِمْتُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ لَمْ تَتَبَرَّضْ
إِلَّا لِهَجَمَاتٍ قَلِيلَةٍ مِنْ جُيُوشٍ مُعَادِيَةٍ ، إِذَا كَانَ هُنَاكَ مِثْلُ هَذِهِ
الِهَجَمَاتِ . وَكَانَتْ ثَمَّةَ كِتَابَاتٍ بَيْنَ هَذِهِ الصُّوَرِ بِحُرُوفٍ لَا أَعْرِفُهَا ،
حُرُوفٍ صَغِيرَةٍ لِلْغَايَةِ .

اسْتَقْبَلَنَا أَحَدُ الْخَدَمِ ، وَكَانَ يَرْتَدِي مَلَابِسَ بَيْضَاءَ . وَأَتَحَنَى لَنَا
دُونَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِأَنَّهُ — كَمَا عَرَفْتُ فِيمَا بَعْدَ كَانَ أَصَمَّ أَبْكُمْ .

كَانَ يَتَفَرَّغُ مِنْ جَانِبِي ذَلِكَ الْكَهْفِ أَهَالِيلُ مَمَرَانِ مُتْقَابِلَانِ . وَكَانَ
يَقِفُ فِي مَدْخَلِ الْمَمَرِ الْأَيْسَرِ مِنْهُمَا بَعْضُ الْخُرَّاسِ ، فَاسْتَنْجَبْتُ أَنَّهُ
يُودِي إِلَى الْجَنَاحِ الَّذِي تَسْكُنُهُ « شَيْ » . وَأَشَارَ لَنَا الْخَادِمُ أَنْ نَسْلُكَ
الْمَمَرَّ الْأَيْمَنَ ، فَسَرْنَا فِيهِ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى سِتَارٍ تَقَعُ خَلْفَهُ حُجْرَةٌ
أَضْيَيْتُ بِنُورٍ يَتَسَلَّلُ إِلَيْهَا مِنْ فَتْحَةٍ لِلتَّهْوِيَةِ نُحِتَتْ فِي وَاجِهَةِ الصَّخْرَةِ .
وَبَقِيَ لِيُوَ فِي الْحُجْرَةِ وَمَعَهُ أَوْسَتَانِ ، الَّتِي كَانَ الْخَادِمُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظَرَاتٍ

غَرِيْبَةً . وَقَادَنَا الْحَادِمُ إِلَى حُجْرَةٍ أُخْرَى خُصِّصَتْ لِحُجُوبٍ ، ثُمَّ إِلَى
حُجْرَتَيْنِ أُخْرَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا لِي وَالثَّانِيَةُ لِإِلْبَالِي .

وَكَانَتْ تِلْكَ الْحُجْرَاتُ مَرْوُودَةً بِقُدُورٍ مُمْلُوءَةٍ بِالْمَاءِ ؛ لِنَا أَنْغْتَسِلَتْ
كَمَا أَنْغْتَسَلَ حُجُوبٌ ، وَقَدْ أَسْعَدَنَا أَنْ نَنْعَمَ بِالنَّظَافَةِ أَخِيرًا . وَمَا إِنْ أَنْتَهَيْنَا
مِنْ الْإِغْتِسَالِ حَتَّى أَقْبَلَتْ صَبِيَّةٌ وَأَشَارَتْ إِلَيْنَا أَنَّ الطَّعَامَ مُعَدٌّ فِي الْحُجْرَةِ
الْمُجَاوِرَةِ ، الَّتِي لَمْ نَكُنْ قَدْ دَخَلْنَاهَا بَعْدُ . وَكَانَتْ الصَّبِيَّةُ أَيْضًا
بِكَمَاءٍ .

وَكَانَتْ عَلَى جَوَانِبِ تِلْكَ الْحُجْرَةِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمَوَائِدِ الْحَجَرِيَّةِ
الْغَرِيْبَةِ ، وَبِأَعْلَى كُلِّ مَائِدَةٍ فَتْحَةٌ لِلتَّهْوِيَةِ . وَكَانَ بِإِحْدَى هَذِهِ الْمَوَائِدِ
عَدَدٌ مِنَ الْمَوَاضِعِ نُحِتَتْ عَلَى شَكْلِ جِسْمِ الْإِنْسَانِ : فَكَانَتْ ثَمَّةَ مَوْضِعٍ
لِلرَّأْسِ ، وَآخَرَ لِلْجَذْعِ ، وَمَوْضِعَانِ لِلْسَّاقَيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ . وَزُيِّنَتْ
جُدُرَانِ الْحُجْرَةِ بِصُورٍ غَرِيْبَةٍ لِلْعَايَةِ ، وَلَمْ يَقُطِنْ حُجُوبٌ إِلَى هَذِهِ
الصُّوَرِ .

كَانَتْ الصُّورَةُ الْأُولَى تُمَثِّلُ مَوْتَ رَجُلٍ فِي بَيْتِهِ . أَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ
فَكَانَتْ لِلرَّجُلِ نَفْسِهِ مُمَدَّدًا عَلَى الْمَائِدَةِ الَّتِي وَصَفْتُهَا ، وَقَدْ وَقَفَ
بِجَوَارِهِ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ يَصُبُّونَ سَائِلًا فِي فَتْحَةٍ شَقَّتْ فِي صَدْرِهِ فَوْقَ قَلْبِهِ .
وَكَانَتْ أَنْوْفُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ وَأَفْوَاهُهُمْ مُعْطَاةٌ كَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ
لِوَقَاتِهِمْ مِنَ الْبُخَارِ أَوْ الرَّايِحَةِ الْمُتَصَاعِدَةِ مِنْ ذَلِكَ السَّائِلِ . وَبَيَّنُّ

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ الرَّجُلَ وَهُوَ يُدْفَنُ فِي مَقْبَرَتِهِ ، وَقَدْ وُضِعَتْ مَشَاعِلُ مُتَقَدَّةٍ
فَوْقَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ قَدَمَيْهِ .

وَكَانَ مِنَ الْوَاضِحِ لِي أَنَّ هَذِهِ الْحُجْرَةَ هِيَ الَّتِي يَجْرِي فِيهَا حِفْظُ
جُثَثِ الْمَوْتَى بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ السَّحَرِيَّةِ الَّتِي بَيَّنَّهَا لِي إِلْبَالِي .

وَلَكَّ أَنْ تُدْرِكَ مَدَى جَوْعِي بَعْدَ طَوِيلِ سَفَرِنَا عِنْدَمَا أَقُولُ إِنَّنِي
تَسَاوَلْتُ وَجَبَةً طَيِّبَةً .



الفصل الخامس عشر

« شَيْءٌ » تَوَدُّ أَنْ تَرَكَ

جَلَسْتُ أَنَا وَجُوبَ مَعَ لِيُو لِمُدَّةِ سَاعَةٍ تَقْرِيًا . وَجَاءَ بِلَالِي وَقَالَ
لِي بِجِدٍّ : « إِنَّهُ حَقًّا لَشَرَفٍ لَمْ يَحْظَ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلُونَ : إِنَّ « شَيْءٌ »
تَوَدُّ أَنْ تَرَكَ . »

وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ دَهْشٌ عِنْدَمَا تَلَقَّيْتُ النَّبَأَ بِفُتُورِ . وَنَهَضْتُ لِاتَّبَعَهُ ، وَبَيْنَمَا
كُنْتُ أَنْهَضُ رَأَيْتُ شَيْئًا لَامِعًا مُلْقَى عَلَى الْأَرْضِ ، فَالْتَقَطْتُهُ . وَكَانَ
الْخَاتَمُ الَّذِي وَجَدَ بِالصُّنْدُوقِ الْحَدِيدِيِّ — ذَلِكَ الْخَاتَمُ الَّذِي نُقِشَتْ
عَلَيْهِ عِبَارَةُ « ابْنُ الشَّمْسِ » وَأَحْسَبُ أَنَّهُ سَقَطَ مِنْ إصْبَعِ لِيُو أَثْنَاءَ
مَرَضِهِ ، فَلَبِسْتُهُ فِي إصْبَعِي حِفَظًا عَلَيْهِ .

وَصَلْنَا إِلَى الْمَمَرِ الْآخِرِ مَارَيْنِ بِالْحُرَّاسِ ، ثُمَّ قَابَلْنَا أَرْبَعَةً مِنْ
الْخُدَمِ : رَجُلَيْنِ وَسَيِّدَتَيْنِ وَأَنْحَنَّا دُونَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا . ثُمَّ سَارَ الرَّجُلَانِ
أَوَّلًا تَتَبِعُهُمَا السَّيِّدَتَانِ ، وَمَرَرْنَا بِالْعَدِيدِ مِنَ الْمَدَاخِلِ ذَوَاتِ السُّتَائِرِ ،
وَهِيَ أَبْوَابُ حُجُرَاتِ الْخُدَمِ عَلَى مَا بَدَأَ ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَدْخَلٍ فِي

نَهَايَةِ الْمَمَرِ يَقِفُ أَمَامَهُ اثْنَانِ مِنَ الْحُرَّاسِ . وَاجْتَرْنَا ذَلِكَ الْبَابَ إِلَى
فَاعَةٍ مُتَّسِعَةٍ بِهَا ثِمَانِي أَوْ عَشْرَ فُتَيَاتٍ مُعْظَمُهُنَّ فِي مُقْتَبِلِ الْعُمُرِ ، جَلَسْنَ
يَسْتَعْلِنَ أَشْغَالُ الْإِبْرَةِ دُونَ أَنْ يَنْطِقْنَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَدْ كَانَتْ كُلُّ
وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ صَمَاءً بِكَمَاءٍ .

كَانَ فِي نَهَايَةِ الْفَاعَةِ مَدْخَلٌ مُعْطَى بِسِتَارٍ سَمِيكِ ، وَقَفْتُ أَمَامَهُ
فَتَاتَانِ ، وَقَدْ خَنَتْ كُلُّ مِنْهُمَا رَأْسَهَا ، وَعَقَدَتْ ذِرَاعَيْهَا فَوْقَ صَدْرِهَا .
وَعِنْدَمَا أَقْتَرَبْنَا مِنْهُمَا ، مَدَّتْ كُلُّ مِنْهُمَا ذِرَاعَهَا وَأَزَاحَتْ السُّتَارَ جَانِبًا .
وَعِنْدَئِذٍ قَامَ بِلَالِي بِتَصَرُّفٍ غَرِيبٍ : فَقَدْ خَرَّ عَلَى يَدَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ وَتَقَدَّمَ
إِلَى الْأَمَامِ قَلِيلًا ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ قَائِلًا : « خَرَّ عَلَى يَدَيْكَ وَرُكْبَتَيْكَ ،

يا صديقي ! إننا في طريقنا إلى حضرة « شي » . ولم أشأ أن أفعل ذلك ، وشعرت بالخوف ، ولكنني تابعت سري ببطء خلف بلالي . ووجدت من السخف أن أدخل الحجرة على هذا النحو ، وأتأبني رغبة في الضحك .

وكان في أقصى الحجرة مدخل مغطى بستار رقيق ، ينبعث من خلفه ضوء . ولم يكن يتلك الحجرة أحد سوانا .

وعندما بلغنا ذلك الستار أنبطح بلالي على الأرض . وشعرت وكأن أحدًا يراقبنا من خلف الستار ، فبدأت أخاف ، ولم أكن أعرف سببًا لـخوفي . وكان الصمت يحيم على المكان ، وكانت تنبعث منه رائحة زهور غريبة ونفاذة ، وتملكني إحساس بالوحدة ، ومضت دقائق ثم انفرج الستار .

الفصل السادس عشر وَحْدِي مَعَ الْمَلِكَةِ

جاءني صوت يقول بالعربية الفصحى : « ماذا يخيفك أيها الغريب ؟ »

كان أجمل صوت سمعته : كان كهمس خريبر الماء في الغدير ؛ أو وقع قطرات المطر فوق سطح ماء ساج ؛ أو تغريد طائر عند شروق الشمس — كان مثل أعذب موسيقى تسمعها الأذن . وامتدت يد بيضاء من وراء الستار وأزاحته جانبا .

كان وجه الملكة مغطى بـنقاب أبيض رقيق ، وكان جسدها مغطى كما لو كان ملفوفًا بكفانيه . ومع ذلك استطعت أن أتبين أن صاحبة هذا القد المقتنع شابة جميلة ، تبدو رشاقتها كلما حركت يدا أو قدمًا .

أعادت علي سؤالها : « ماذا يخيفك أيها الغريب ؟ » ورفعت

« شَيْءٌ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تُطَاعَ » ؟ وَكَيْفَ أَتَقْنَتُ الْحَدِيثَ بُلُغْتِي إِلَى هَذَا الْحَدِّ ؟ « ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى بِلَالِي وَقَالَتْ : « آه ! أَنْتَ هُنَا أَيُّهَا الْعَجُوزُ ! أَخْبِرْنِي : لِمَاذَا هُوَ جَمَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ وَكَادُوا يُقْتَلُونَ بِالْقَدْرِ ؟ مَا مَعْنَى هَذَا ؟ »

أَجَابَهَا دُونَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ : « آه يَا « شَيْءٌ » لَقَدْ تَزَعَمْتَ أُولَئِكَ الْأَشْرَارَ أَمْرًا كَانَتْ غَاضِبَةً مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ اسْمَ جُوب ، وَلَكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَالْآخَرَ — الْأَسَدَ — قَتَلَا تِلْكَ الْمَرْأَةَ وَقَاتِلَا بِشَجَاعَةٍ حَتَّى أَذْرَكْتَهُمْ وَأَنْقَذْتَهُمْ . وَقَدْ أَتَيْنَا يَا أُولَئِكَ الْأَشْرَارَ إِلَى خُور لَتَيْتُمْ مُحَاكِمَتَهُمْ عَلَى يَدَيْكَ . »

قَالَتْ : « أَعْرِفُ ذَلِكَ ، وَسَوْفَ أَحَاكِمُهُمْ غَدًا . أَمَّا أَنْتَ فَإِنِّي أَغْفِرُ عَنْكَ ، وَلَكِنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ أَكْثَرَ حِرْصًا بَعْدَ ذَلِكَ . »

وَنَهَضَ بِلَالِي عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَأَنَحَنِي مَرَّتَيْنِ ثُمَّ اسْتَدَارَ خَارِجًا مِنَ الْقَاعَةِ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي دَخَلَهَا بِهَا .

وَصَبِرْتُ وَخَدِي مَعَ تِلْكَ الْمَلِكَةِ الْعَجَبِيَّةِ وَالرَّهْبِيَّةِ .



إِحْدَى ذِرَاعَيْهَا ، فَرَأَيْتُ شَعْرَهَا مُنْسَابًا عَلَى رِدَائِهَا الْأَبْيَضِ يَكَادُ يَبْلُغُ قَدَمَيْهَا .

أَحْبَبْتُهَا : « إِنَّهُ جَمَالُكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكَةُ ، الَّذِي يَنْبَغُ الْخَوْفَ فِي نَفْسِي ! »

وَسَمِعْتُ بِلَالِي يَهْمِسُ وَهُوَ مَا زَالَ مُتَبَطِّحًا عَلَى الْأَرْضِ : « أَحْسَنْتَ يَا صَدِيقِي ! أَحْسَنْتَ ! »

قَالَتِ الْمَلِكَةُ : « إِنِّي أَرَى أَنَّ الرِّجَالَ لَمْ يَنْسُوا كَيْفَ يَقُولُونَ كَلَامًا مَعْسُولًا . وَالْآنَ أَخْبِرْنِي : كَيْفَ جِئْتُمْ إِلَى هُنَا ؟ مَا الَّذِي تَوَدُّونَ أَنْ تَرَوْهُ هُنَا ؟ لِمَاذَا تَسْتَهِينُونَ بِأَرْوَاحِكُمْ فَتَضَعُوا أَنْفُسَكُمْ تَحْتَ رَحْمَةِ

قَالَتْ : « أَلَا تَرَاهُ مُصْرٌّ مَوْجُودَةٌ ؟ أَلَا يَرَاهُ الْفَرَسُ يَحْكُمُونَهَا ؟ »
أَجَبْتُهَا : « لَا ! لَقَدْ رَحَلَ الْفَرَسُ عَنْ مُصْرٍ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنَ الْفَيِّ
عَامٍ . »

قَالَتْ : « وَلَكِنِّي أَذْكُرُ أَنَّهُمْ كَانُوا هُنَاكَ ! »

فَتَمَلَّكَنِي خَوْفٌ وَدَهْشَةٌ ، وَقُلْتُ : « لَقَدْ أَنْقَضَى ، أَيُّهَا الْمَلِكَةُ ،
أَكْثَرَ مِنَ الْفَيِّ عَامٍ . كَيْفَ يُمَكِّنُ لِمَرْأَةٍ أَنْ تَعِيشَ الْفَيِّ عَامٍ ؟ »
نَظَرْتُ إِلَيَّ ، وَبَدَتْ عَيْنَاهَا وَكَانَهُمَا تَسِيرَانِ اغْوَارِي .

قَالَتْ : « أَيُّهَا الْعَبِيُّ ، أَلَا تَرَاهُ تَعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّ الْكَائِنَاتِ تَمُوتُ ؟
لَيْسَ ثَمَّةَ مَا يُسَمَّى بِالْمَوْتِ . إِنَّهُ لَيْسَ سِوَى تَغْيِيرٍ . لَقَدْ أَنْقَضَتْ سِتَّةَ
آلَافٍ عَامٍ مُنْذُ عَاشَ النَّاسُ الَّذِينَ رَسَمُوا هَذِهِ الصُّوَرِ عَلَى الْجُدْرَانِ ،
وَقَدْ مَاتُوا بِسَبَبِ مَرَضٍ خَطِيرٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ لَيْسُوا أَمْوَاتًا ، وَلَعَلَّ
أَرْوَاحَهُمْ تَحُومُ حَوْلَنَا فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ . » وَتَلَفَّتْ حَوْلَهَا ثُمَّ قَالَتْ :
« يُحِيلُ إِلَيَّ أَحْيَانًا أَنَّنِي أَرَاهُمْ . »

قُلْتُ : « وَلَكِنَّهُمْ أَمْوَاتٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْعَالَمِ . »

قَالَتْ : « إِنَّهُمْ أَمْوَاتٌ إِلَى حِينٍ ، وَلَكِنَّهُمْ يُولَدُونَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى .
إِنْ أَسْمِي عَائِشَةُ ، وَأَنَا أَنْتَظِرُ مَوْلِدَ إِنْسَانٍ أَحَبَّيْتُهُ يَوْمًا — إِنَّنِي أَنْتَظِرُ

الفصل السابع عشر عائشة ترفع النقاب عن وجهها

قَالَتِ الْمَلِكَةُ : « هَا هُوَ ذَا الْعَجُوزُ ذُو اللَّحْيَةِ الْبَيْضَاءِ يَنْصَرِفُ !
لَقَدْ ضَيَّقْتُ بِاتِّحْنَاءِ تَيْهَمٍ لِي ، وَضَيَّقْتُ بِدُعْرِهِمْ مِنِّي . وَأَشْعُرُ فِي بَعْضِ
الْأَحْيَانِ أَنَّنِي أَوَدُّ أَنْ أَقْتُلَهُمْ جَمِيعًا بِسِحْرِي ، لَا لِسَبَبٍ إِلَّا كَيْ أَرَى
وُجُوهَ الْآخَرِينَ وَقَدْ شَحِبَتْ مِنَ الرَّغْبِ . » ثُمَّ أَزَاحَتِ السُّتَارَ جَانِبًا
حَتَّى أَتَقَلَّ إِلَى الْحُجْرَةِ الدَّاخِلِيَّةِ .

كَانَتْ وَرَاءَ السُّتَارِ حُجْرَةٌ عَرَضُهَا حَوَالِي أَرْبَعَةِ أَمْتَارٍ . وَكَانَ فِي أَحَدِ
جَوَانِبِهَا مَقْعَدٌ وَمِنْضَدَةٌ عَلَيْهَا بَعْضُ الْفَاكِهَةِ وَطَاسٌ بِهٍ مَاءٍ . وَكَانَ
يُضِيءُ الْحُجْرَةَ ضَوْءٌ خَافِتٌ يَنْبَعُثُ مِنَ الْمَشَاعِلِ .

قَالَتِ الْمَلِكَةُ : « اجْلِسْ ، فَلَا مُبَرَّرَ لِلْخَوْفِ مِنِّي . وَإِذَا كَانَ ثَمَّةَ
مُبَرَّرٍ لِلْخَوْفِ ، فَإِنَّ خَوْفَكَ لَنْ يَطُولَ لِأَنَّنِي سَوْفَ أَقْتُلُكَ . وَالْآنَ
أُخْبِرُنِي كَيْفَ تَأْتِي لَكَ أَنْ تُجِيبَ الْحَدِيثَ بِلُغَتِي ؟ »

فَاجَبْتُهَا : « لَقَدْ دَرَسْتُهَا ، وَالنَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ بِهَا فِي مُصْرٍ . »

أَنْ يُولَدَ مَرَّةً أُخْرَى . لَقَدْ مَاتَ مِنْذُ الْفَيِّ عَامٍ . لِمَاذَا تَرَانِي ، أَنَا بِجَمَالِي
وَسُلْطَانِي ، أَعِيشُ هُنَا وَسَطَ قَوْمٍ بُدَائِيَّينَ لَا يَفْضُلُونَ آلِبَهَائِمَ
إِلَّا قَلِيلًا ؟ »

قُلْتُ : « لَا أَعْرِفُ لِذَلِكَ سَبَبًا . »

قَالَتْ : « ذَلِكَ لِأَنَّنِي أَنْتَظِرُ مَنْ أَحِبُّ ، وَلِأَنَّنِي أَعْرِفُ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ
يُولَدَ مَرَّةً أُخْرَى سَوْفَ يَأْتِي إِلَى هُنَا . »

فَقُلْتُ : « إِذَا كُنَّا نَحْنُ الْبَشَرُ نُولَدُ مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ ، فَلِمَاذَا لَا يَنْطَبِقُ
ذَلِكَ عَلَيْكَ ؟ فَأَنْتِ تَقُولِينَ إِنَّكَ لَمْ تَمُوتِي مِنْ قَبْلُ ؟ »

أَجَابَتْ : « هَذَا صَحِيحٌ . إِنِّي لَمْ أَمُتْ ، لِأَنَّنِي تَعَلَّمْتُ سِرَّ
الْحَيَاةِ ، وَسِرَّ الْمَوْتِ ، إِلَى جَانِبِ أَسْرَارِ أُخْرَى كَثِيرَةٍ . أَتَوَدُّ أَنْ
تَعْرِفَ كَيْفَ عَرَفْتُ بِقُدُومِكُمْ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ، وَمِنْ ثَمَّ أَتَقَدُّتُكُمْ مِنْ
شَعْبِ الْأَمَاهَجِرِ ؟ أَنْظُرِي إِلَى هَذَا أَلْمَاءِ . »

وَقَفْتُ وَنَظَرْتُ فِي طَاسِ أَلْمَاءِ ، فَقَتَمَ لَوْنُ أَلْمَاءِ ثُمَّ صَفَا . وَرَأَيْتُ
فِيهِ قَارِينًا يَرُقُّدُ فِيهِ لِيُو نَائِمًا وَقَدْ غَطَّى رَأْسَهُ مِنَ الْحَشَرَاتِ ، بَيْنَمَا كُنْتُ
أَنَا وَجُوبٌ وَمُحَمَّدٌ نَسِيرٌ عَلَى الشَّاطِئِ جَاذِبِينَ الْقَارِبَ ، فَصِحْتُ
مُتَعَجِّبًا : « أَهَذَا سِخْرٌ ؟ ! »

أَجَابَتْ : « لَا ، إِنَّهُ لَيْسَ بِسِخْرِ ، وَلَكِنِّي أُسْتَطِيعُ أَنْ أُسْتَرْجَعَ صُورَ

الْمَاضِي وَتِلْكَ الْأَحْدَاثَ الَّتِي لَهَا عِلَاقَةٌ بِيَلَدِي . وَلَكِنِّي لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ
أَرَى الْمُسْتَقْبَلَ . لَقَدْ رَأَيْتُ هَذِهِ الصُّورَةَ فِي الطَّاسِ ؛ لِذَا أُرْسَلْتُ مِنْ
أَتَقَدُّكُمْ . أَخْبَرَنِي كَيْفَ حَالُ الشَّابِّ الَّذِي كَانَ نَائِمًا بِالْقَارِبِ ؟ أَوَدُّ
أَنْ أَرَاهُ ، وَلَكِنْ قِيلَ لِي إِنَّهُ جَرِيحٌ وَمَرِيضٌ . »

قُلْتُ : « إِنَّهُ مَرِيضٌ لِلْغَايَةِ . أَلَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَفْعَلِي شَيْئًا لَهُ ؟ »

قَالَتْ : « دَعُهُ يَرُقُّدُ يَوْمًا آخَرَ . مِنْ الْأَفْضَلِ لَهُ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى
الْمَرَضِ بِنَفْسِهِ آعْتِمَادًا عَلَى قُوَّتِهِ . وَلَكِنْ إِنْ لَمْ يَوْفُقْ فَإِنِّي سَوْفَ آتِي
إِلَيْهِ . مَنْ الَّذِي يُعْنِي بِهِ ؟ »

أَجَبْتُهَا : « خَادِمُنَا جُوبٌ ، وَامْرَأَةٌ مِنْ شَعْبِكَ ، ابْنَتُهَا الْمَلِكَةُ ،
تُدْعَى أَوْسْتَان . »

قَالَتْ بِدَهْشَةٍ : « شَعْبِي ! إِنْ هَؤُلَاءِ الرَّقِيقُ لَيْسُوا شَعْبِي ،
وَلَا تُنَادِينِي بِلَقَبِ الْمَلِكَةِ ؛ فَقَدْ ضَيَّقْتُ بِهَذَا اللَّقَبِ . نَادِينِي بِأَسْمِ
عَائِشَةٍ ؛ فَإِنَّ هَذَا الْأَسْمَ يُذَكِّرُنِي بِالْمَاضِي . أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِتِلْكَ الْمَرْأَةِ
الَّتِي تُدْعَى أَوْسْتَان ، فَقَدْ قِيلَ لِي يَوْمًا إِنَّ حَظًّا جَسِيمًا سَيَحِقُّ لِي
بِسَبَبِ امْرَأَةٍ . إِنِّي أَتَسَاءَلُ إِذَا كَانَتْ ... » وَتَوَقَّفْتُ عَنِ الْكَلَامِ ، ثُمَّ
قَالَتْ : « سَوْفَ أَرَى . »

وَنَظَرْتُ فِي أَلْمَاءِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَقَالَتْ بِلَهْجَةٍ سَرِيعَةٍ : « أَنْظُرِي ، أَهَذِهِ
هِيَ الْمَرْأَةُ ؟ »

نَظَرْتُ فِي الْمَاءِ ، فَرَأَيْتُ وَجْهَ أَوْسْتَانِ وَهِيَ تَنْحَنِي فَوْقَ شَخْصٍ
وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ بِحَنَانٍ .

قُلْتُ : « نَعَمْ ، إِنَّهَا تُرَاقِبُ لِيُوْ اَثْنَاءَ نَوْمِهِ . »

قَالَتْ : « لِيُوْ — الْأَسَدُ ؟ إِنَّ ذَلِكَ لِأَمْرٍ بِالْغِ الْعَرَايَةِ ، وَلَكِنَّهُ
مُسْتَحِيلٌ ! » ثُمَّ مَرَّتْ بِيَدِهَا فَوْقَ الْمَاءِ فَتَلَاشَتْ الصُّورَةَ .

سَأَلْتَنِي : « هَلْ هُنَاكَ مَا تَوَدُّ أَنْ تَسْأَلَنِي عَنْهُ ، يَا هُولِي ، قَبْلَ أَنْ
تَنْصَرِفَ ؟ إِنَّ أَفْرَادَ شَعْبِ الْأَمَاهَجِرِ هَمَجِيُونَ ، وَلَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا ،
كَمَا أَنَّ خَدَمِي صُمٌّ وَبُكْمٌ . أَتُمَّةٌ مَا تَوَدُّ أَنْ تَسْأَلَنِي عَنْهُ ؟ »

قُلْتُ : « نَعَمْ يَا عَائِشَةُ . أَوَدُّ أَنْ أَشَاهِدَ وَجْهَكَ . »

فَضَحِكَتْ وَقَالَتْ : « إِنَّ هُنَاكَ أُسْطُورَةَ يُونَانِيَّةً عَنْ رَجُلٍ مَاتَ عِنْدَمَا
شَاهَدَ جَمَالًا فَتَانًا ، وَأُخْشَى أَنْ تُضَارَ إِنْ أَرَيْتَكَ وَجْهِي . »

قُلْتُ : « إِنِّي لَا أُخْشَى الْجَمَالَ . »

وَرَفَعَتْ ذِرَاعَيْهَا ، وَأَزَاخَتْ النَّقَابَ يَظْهَرُ . يَا إِلَهِي ! كَيْفَ يُمَكِّنُ
أَنْ يَوْجَدَ مِثْلُ هَذَا الْجَمَالِ ؟! إِنِّي أَعْجَزُ عَنْ وَصْفِهِ . كَيْفَ يُمَكِّنُ
أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هَذَا الْجَمَالِ شَرِيرًا ؟ وَمَعَ ذَلِكَ فَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ . وَلَمْ
أَسْتَطِعْ لِفَتْرَةٍ أَنْ أَبْعِدَ عَيْنِي عَنْهَا . ثُمَّ وَضَعْتُ كَفِّي أَمَامَ عَيْنَيَّ ، وَنَظَرْتُ



إِلَيْهَا مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِي فَرَأَيْتُ تَغْيِيرًا مُخِيفًا طَرَأَ عَلَيْهَا : تَرَكَّزَتْ عَيْنَاهَا
عَلَى شَيْءٍ مَا ، وَكَانَ فِيهِمَا نَظَرَةٌ رُغْبٍ وَأَمَلٍ .

هَمَسَتْ : « أَيُّهَا الرَّجُلُ ، مِنْ أَيْنَ حَصَلْتَ عَلَى هَذَا الْخَاتَمِ ؟ تَكَلَّمْ
وَلَا قَتْلُكَ بِسِخْرِي . عَفْوًا ! لَقَدْ أَخَفْتُكَ . وَلَكِنَّ هَذَا الْخَاتَمَ : مِنْ
أَيْنَ جِئْتَ بِهِ ؟ »

أَجَبْتُ : « لَقَدْ أَلْتَقَطْتُهُ مِنَ الْأَرْضِ . »

قَالَتْ : « هَذَا غَرِيبٌ ، بَلْ غَرِيبٌ جَدًّا ! لَقَدْ سَبَقَ أَنْ رَأَيْتُ مِثْلَ
هَذَا الْحَجَرِ يَوْمًا . كَانَ كَالِيَكْرَاتِسِ يَلْبَسُهُ دَائِمًا ، وَكَانَ يَعْتَرُّ بِهِ كَثِيرًا .
إِنْصَرِفْ ! إِنْصَرِفْ آلَانَ ! »

الفصل الثامن عشر لعنة عائشة

أُرِقْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ بَعْدَ مَا حَدَّثَ ، فَتَمَدَّدْتُ فِي سَرِيرِي . وَبَعْدَ أَنْ أَدْرَكْتُ أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْ مُحَاوَلَةِ النَّوْمِ ، قَرَّرْتُ أَنْ أَنْهَضَ وَأَذْهَبَ لِأَطْمَئِنَّ عَلَى لَبِو . وَتَوَجَّهْتُ إِلَى حُجْرَتِهِ فِي هُدُوءٍ ، فَوَجَدْتُهُ قَلِقًا ، وَإِلَى جَوَارِهِ تَجَلِسُ أَوْسْتَانِ شِبْهَ نَائِمَةٍ . كَأَنَّهُ يُمَسِّكُ بِيَدِهِ ! يَا لَهُ مِنْ مِسْكِينٍ ! كَانَ وَجْهُهُ شَدِيدَ الْإِحْمَارِ ، وَآرَأَسَمْتُ تَحْتَ عَيْنَيْهِ ظِلَالٌ سَوْدَاءَ ، وَأَخَذَ يَتَنَفَّسُ بِضَعُوبَةٍ . لَقَدْ أَشْتَدَّتْ وَطْأَةُ الْمَرَضِ عَلَيْهِ ، حَتَّى إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَمُوتَ .

وَعُدْتُ إِلَى حُجْرَتِي بِهَدُوءٍ كَمَا جِئْتُ ، وَأَنَا مَا زِلْتُ عَاجِزًا عَنِ النَّوْمِ . وَفَجْأَةً تَبَيَّنْتُ وُجُودَ مَدْخَلِ ضَيْقٍ فِي الْجِدَارِ ، فَحَمَلْتُ الْمِشْعَلَ وَأَتَجَّهْتُ إِلَيْهِ وَفَحَصْتُهُ ؛ فَلَيْسَ مِنَ الْأَمَانِ فِي بَلَدٍ غَرِيبٍ أَنْ تَجِدَ مَمْرًا يُؤَدِّي إِلَى غُرْفَةِ نَوْمِكَ ، دُونَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي . اجْتَرْتُ الْمَدْخَلَ ، وَسِرْتُ فِي الْمَمَرِ الَّذِي قَادَنِي إِلَى سُلَّمٍ عِنْدَ أَسْفَلِهِ مَمَرٌ أَصْغَرُ نُحِثَ فِي الصَّخْرِ . وَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَقَعُ تَحْتَ مُتَنَصِّفِ الْكَهْفِ الْكَبِيرِ .

عِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى مُنْعَطَفٍ هَبَّتْ رِيحٌ وَأُطْفَأَتِ الْمِشْعَلُ ، فَعَمَّ

الظُّلَامُ الْمَمَرُ . وَنَظَرْتُ أَمَامِي ، فَلَمَحْتُ ضَوْءًا بَعِيدًا خَافِتًا لِنَارِ مُشْتَعِلَةٍ . وَفَكَّرْتُ فِي أَنْ أَشْعَلَ مِنْهَا مِشْعَلِي ، فَسِرْتُ بِحِرْصٍ مُسْتَعِدًّا إِلَى جِدَارِ الْمَمَرِ مُتَلَمِّسًا طَرِيقِي خُطْوَةً خُطْوَةً بِقَدَمِي .

رَأَيْتُ سِتَارًا بَدَتْ لِي مِنْ خِلَالِهِ النَّارُ تَتَلَأَلُ . وَعِنْدَمَا دَقَقْتُ النَّظَرَ مِنْ خِلَالِ السِّتَارِ تَبَيَّنَ لِي بِالْدَاخِلِ كَهْفٌ صَغِيرٌ تَتَوَسَّطُهُ نَارٌ ذَاتُ لَهَبٍ أَيْضَ عَدِيمَةِ الدُّخَانِ . وَكَانَ فِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ مِنَ الْكَهْفِ رَفٌّ حَجَرِيٌّ وَضِعَتْ فَوْقَهُ جُثَّةُ رَجُلٍ مَيِّتٍ ، وَغُطِّيَتْ بِقُمَاشٍ أَيْضَ . وَكَأَنَّهُ تَجَلِسُ بِجَوَارِ النَّارِ ، بِمُحَاذَاتِي وَفِي مُوَاجَهَةِ الْمَيِّتِ ، أَمْرًا . وَقَفْتُ الْمَرْأَةُ ، وَتَبَيَّنْتُ أَنَّهَا « شَيْ » . وَكَأَنَّهُ تَرْتَدِي مَلَابِسَ



يَبْضَاءَ ، وَقَدْ طَرَأَ عَلَى مَلَامِحِ وَجْهِهَا تَغْيِيرٌ : كَانَتْ عَلَامَاتُ الْجُنُونِ
الَّتَامَ مُرْتَسِمَةً عَلَى وَجْهِهَا ، وَكَذَلِكَ غَضَبٌ شَدِيدٌ ، وَرَأَيْتُ فِي عَيْنَيْهَا
فَرْعًا وَالْمَا لَا يَحْتَمِلُهُ إِنْسَانٌ . وَرَفَعْتُ ذِرَاعَيْهَا ، وَسَمِعْتُهَا تَهْمِسُ :
« عَلَيْهَا اللَّعْنَةُ ! فَلْتَحُلِ اللَّعْنَةُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمِصْرِيَّةِ ، لِأَنَّ سِحْرَهَا
أَنْقَذَهَا مِنِّي ، وَلِأَنَّهَا مَنَعَتْ عَنِّي مَنْ أُحِبُّ . عَلَيْهَا اللَّعْنَةُ فِي مَوْتِهَا ،
وَعَلَيْهَا اللَّعْنَةُ عِنْدَمَا تُولَدُ مَرَّةً أُخْرَى . »

كَرَّرْتُ هَذَا الْكَلَامَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ ، وَبَدَأْتُ تَبْكِي ، ثُمَّ جَلَسْتُ بِجَوَارِ
النَّارِ ثَقُولَ وَهْيٍ تَتَحَبَّبُ :

« أَلْفَا عَامٍ ! لَقَدْ أَنْتَظَرْتُ أَلْفِي عَامٍ ! لَقَدْ أَنْفَطَرَ قَلْبِي أَسَى أَلْفِي
عَامٍ ، وَظَلَّ الشَّرُّ الَّذِي أَقْتَرَفْتُهُ مَائِلًا أُمَامِي . إِنَّ الزَّمْنَ لَا يَجُودُ
بِالْتَّسِيَانِ . لِمَاذَا لَمْ أُمِتْ ، يَا حَبِيبِي ، عِنْدَمَا قَتَلْتُكَ ؟ وَلَكِنْ
وَاحْسِرَتَاهُ ! لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمُوتَ . »

ثُمَّ اتَّجَهْتُ إِلَى حَيْثُ كَانَتْ الْجُثَّةُ مُمَدَّدَةً وَصَاحَتُ : « أَيُّ
كَالِيكَرَاتِسَ ، عَلَيَّ أَنْ أَلْقِيَ نَظْرَةً عَلَى وَجْهِكَ . »

وَكَشَفَتِ الْغِطَاءَ ، وَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا بِجَوَارِ الرَّجُلِ الْمَيِّتِ ،
وَلَمَسَتْ بِشَفَتَيْهَا جُثَّتَهُ ، وَبَكَتْ .

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَحَمَّلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَانْصَرَفْتُ عَائِدًا إِلَى غُرْفَتِي
بِسَلَامٍ ، وَالْقَيْتُ بِنَفْسِي عَلَى الْفِرَاشِ .

الفصل التاسع عشر عائشة تُصَدِّرُ الْحُكْمَ

عِنْدَمَا فَتَحْتُ عَيْنَيَّ وَجَدْتُ جُوبَ الْكَهْفِ يُرْتَّبُ مَلَابِيسِي . وَبَعْدَ
أَنْ لَبِسْتُ مَلَابِيسِي ، وَتَنَاوَلْتُ طَعَامَ الْإِفْطَارِ ذَهَبْتُ لِأَرَى لِيُو . وَلَكِنَّهُ
لَمْ يَعْرِفْنِي ، فَسَأَلْتُ أَوْسْتَانَ عَنْ حَالِهِ ، فَاسْتَفْتَيْتُ بِأَنْ هَزَّتْ رَأْسَهَا ،
وَأَجْهَشَتْ بِالْبُكَاءِ .

حَضَرَ بِلَالِي أَثْنَاءَ وُجُودِي ، وَنَظَرَ إِلَى لِيُو وَقَالَ : « سَوْفَ يَمُوتُ
الَّيْلَةَ . » ثُمَّ اسْتَدَارَ نَاجِحَتِي وَقَالَ : « إِنَّ « شَيْءَ أَلَّتِي يَجِبُ أَنْ
تُطَاعَ » تَأْمُرُكَ بِأَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهَا . » فَتَبِعْتُهُ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى الْكَهْفِ
الرَّئِيسِيِّ الَّذِي كَانَ يَمْتَلِئُ بِأَفْرَادٍ مِنْ شَعْبِ الْأُمَاهَا جِر . وَمَرَرْنَا
وَسَطَهُمْ ، وَوَصَلْنَا إِلَى مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ فِي نَهَايَةِ الْكَهْفِ تُخْفُ بِهِ مِنْ
الْجَانِبِيِّينَ مَمَرَاتٌ تُؤَدِّي إِلَى خَارِجِ الْكَهْفِ .

قَالَ بِلَالِي : « هَذِهِ الْمَمَرَاتُ تُؤَدِّي إِلَى كَهُوفٍ أُخْرَى مَمْلُوءَةٍ
بِجُثَثِ الْمَوْتَى ، وَالْجَبَلُ كُلُّهُ فِي الْوَاقِعِ مَمْلُوءٌ بِالْمَوْتَى الَّذِينَ حُفِظَتْ
أَجْسَادُهُمْ حِفْظًا مُتَقَنًا . »

أَمَّا الْجُزْءُ الْمُرْتَفِعُ مِنْ ذَلِكَ الْكَهْفِ فَقَدْ وَضِعَتْ فِيهِ مِحْفَةٌ مِنْ
الْخَشَبِ الْأَسْوَدِ . وَفَجَاءَ سَمِعَتْ هُتَافًا بِالْعَرَبِيَّةِ : « هِيَ ! هِيَ ! »
وَعِنْدَئِذٍ انْبَطَحَ الْجَمِيعُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، حَتَّى إِنِّي وَجَدْتُ نَفْسِي
الشَّخْصَ الْوَحِيدَ الَّذِي ظَلَّ واقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ . ثُمَّ أَقْبَلَ مِنْ مَمَرٍ عَلَى
الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ صَفٍّ مِنَ الْحُرَّاسِ يَتَّبِعُهُمْ عِشْرُونَ مِنَ الْخَدَمِ الذُّكُورِ ،
وَحُلَفَهُمْ عِشْرُونَ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي كُنَّ يَحْمِلُنَ الْمَسَاعِلَ . وَآخِرًا
أَقْبَلَتْ عَائِشَةُ بِذَاتِهَا وَقَدْ تَدَثَّرَتْ مِنْ رَأْسِهَا لِأُخْمَصٍ قَدَمَيْهَا وَجَلَسَتْ
عَلَى الْمِحْفَةِ ، ثُمَّ كَلَّمَتْنِي بِالْيُونَانِيَّةِ ، وَلَعَلَّهَا أَرَادَتْ أَلَّا يَفْهَمَ الْآخَرُونَ
حَدِيثَهَا .

قَالَتْ : « نَعَالَ إِلَى هُنَا يَا هُولِي ، وَاجْلِسْ عِنْدَ قَدَمَيَّ لِنَرَى كَيْفَ
أَحْكُمُ عَلَى الْآثِمِينَ . هَلْ نَمِتَ جَيِّدًا يَا هُولِي ؟ »

أَجَبْتُهَا : « لَا ، لَمْ أَتَمْ جَيِّدًا ! » وَكُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ قَدْ عَرَفَتْ
كَيْفَ قَضَيْتُ لَيْلَتِي .

قَالَتْ « شَيْءٌ » : « أَنَا أَيْضًا لَمْ أَتَمْ جَيِّدًا ، وَقَدْ حَلَمْتُ بِشَخْصٍ
أُحِبُّهُ ، كَمَا حَلَمْتُ أَيْضًا بِشَخْصٍ أَكْرَهُهُ . أَحْضِرُوا الرِّجَالَ ! »

وَأَقْبَيْدَ السُّجَنَاءِ إِلَيْهَا فَسَأَلَتْنِي : « هَلْ تَعْرِفُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ ؟ قُصِّ
عَلَيَّ مَا حَدَثَ . »

حَكَيْتُ مَا حَدَثَ بِإِيجَازٍ ، وَسَمِعَ الْجَمِيعُ قِصَّتِي فِي صَمْتٍ تَامٍ .

وَرَوَى بِلَالِي الْقِصَّةَ نَفْسَهَا مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرَهُ . وَبَعْدَ ذَلِكَ قَالَتْ
« شَيْءٌ » تُخَاطِبُ الرِّجَالَ بِصَوْتٍ بَارِدٍ كَالثَّلْجِ : « لَقَدْ سَمِعْتُمْ
مَا قَالَاهُ ، فَمَا قَوْلُكُمْ ؟ »

لَمْ يُجِبْ أَحَدٌ عَنْ سُؤَالِهَا ، إِلَّا أَنَّ وَاحِدًا مِنَ السُّجَنَاءِ اَلْتَمَسَ مِنْهَا
الرَّحْمَةَ .

وَحَيَّمَ السُّكُونُ عَلَى الْمَكَانِ ، وَوَقَفَ السُّجَنَاءُ مُطَاطِعِي الرُّؤُوسِ .
أَمَّا بَقِيَّةُ النَّاسِ فَقَدْ ظَلَلُوا مُنْبَطِحِينَ عَلَى الْأَرْضِ ، يَنْظُرُونَ مِنْ خِلَالِ
أَصَابِعِهِمْ إِلَى الْمَلِكَةِ الَّتِي قَالَتْ بَعْدَ ذَلِكَ : « فَلْيُؤَخِّدُوا إِلَى مَكَانِ
الْمَوْتِ . »

فَالْتَمَسْتُ مِنْهَا أَنْ تَرْحَمَهُمْ ، وَلَكِنَّهَا قَالَتْ بِالْيُونَانِيَّةِ : « هَذَا غَيْرُ
مُمْكِنٍ . لَوْ أَنَّنِي أَظْهَرْتُ أَيَّ قَدَرٍ مِنَ الرَّحْمَةِ ، فَلَنْ تُكْتَبَ لَكُمْ
السَّلَامَةُ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ . »

ثُمَّ اسْتَدَارَتْ إِلَى قَائِدِ الْحُرَّاسِ قَائِلَةً : « خُذْهُمْ بَعِيدًا ! »

الْكَهْفَ ، كَمَا هُوَ الْآنَ ، مُنْذُ أَلْفِي عَامٍ ، وَقَدْ بُنِيَ الْمَدِينَةُ قَبْلَهُ
بِأَرْبَعَةِ آلَافِ عَامٍ . وَالْآنَ أَتَّبِعُنِي لِتَرَى كَيْفَ كَانَتْ النِّهَايَةُ . »
وَقَادَتْنِي إِلَى مُتْتَصِفِ الْكَهْفِ حَيْثُ نُبِتَ بِالْأَرْضِ حَجَرٌ مُسْتَدِيرٌ
ضَخْمٌ ، وَكَانَتْ ثَمَّةٌ كِتَابَةٌ فِي مُرْبَعٍ عَلَى الْحَائِطِ الْقَرِيبِ مِنَ الْحَجَرِ
قَرَأْتُهَا بِصَوْتٍ عَالٍ :

« أَنَا « جُنْيُو » ، كَاهِنٌ بِمَدِينَةِ حُورٍ . أَكْتُبُ هَذَا بَعْدَ مُضِيِّ أَرْبَعَةِ
آلَافٍ وَثَمَانِمِئَةٍ وَثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ عَلَى إِثْشَاءِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ . لَقَدْ سَقَطَتْ
مَدِينَةُ حُورٍ ، وَهَذِهِ هِيَ مَقْبَرَةُ شَعْبِهَا : فَقَدْ خِيَمَتْ مُنْذُ عَامَيْنِ سَحَابَةٌ
كَبِيرَةٌ عَلَى الْمَدِينَةِ ، وَاجْتَنَحَ شَعْبُهَا وَبَاءَ ، فَاسْوَدَّ لَوْنُهُمْ ، وَمَاتُوا :
الْعَبِيُّ مِنْهُمْ وَالْفَقِيرُ ، وَالْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ . وَكَانَ عَدَدُ الْمَوْتَى كَبِيرًا
لِلدَّرَجَةِ صَعْبٍ مَعَهَا حِفْظُ أَجْسَادِهِمْ وَفَقًّا لِعَادَاتِ قَوْمِي ؛ لِذَا فَقَدْ
أَلْقَيْتِ الْجُثَثُ فِي الْوَهْدَةِ الْعَمِيقَةِ تَحْتَ الْحَجَرِ الْمُسْتَدِيرِ . أَمَّا الْقَلَائِلُ
الَّذِينَ بَقَوْا أَحْيَاءَ فَقَدْ نَزَحُوا إِلَى الشَّاطِئِ ، وَرَكِبُوا سَفِينَةً أَبْحَرَتْ بِهِمْ
شَمَالًا . وَأَنَا « جُنْيُو » ، الَّذِي يَكْتُبُ هَذَا ، آخِرُ مَنْ بَقِيَ حَيًّا فِي
هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ . »

ثُمَّ سَأَلْتَنِي : « أَلَا تَعْتَقِدُ يَا هُولِي أَنَّ أَوْلِيكَ الَّذِينَ أَبْحَرُوا شَمَالًا مِنْ
شَعْبِ حُورٍ هُمْ أَجْدَادُ الْمِصْرِيِّينَ الْأَوَائِلِ ؟ تَعَالِ وَسَأُرِيكَ الْوَهْدَةَ
الْعَمِيقَةَ الَّتِي تُشِيرُ إِلَيْهَا الْكِتَابَةُ . »

تَبِعْتُهَا إِلَى مَمَرٍ جَانِبِي ، وَنَزَلْنَا دَرَجَاتٍ عَدِيدَةً حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَمَرٍ

الفصل العشرون كهف الموتى

اِقْتَادَ الْحُرَّاسُ السُّجَنَاءَ بَعِيدًا ، وَغَادَرَ بَقِيَّةُ النَّاسِ الْقَاعَةَ وَهُمْ
يَسِيرُونَ عَلَى أَيْدِيهِمْ وَرُكَبِهِمْ ، وَبَقِيْتُ أَنَا وَالْمَلِكَةُ وَاثْنَانِ فَقَطْ مِنَ
الْخَدَمِ . وَتَهَضُّتُ وَاقِفًا لِأُنْصَرِفَ ، فَقَالَتْ لِي : « اِبْقَ يَا هُولِي . هَلْ
تَوَدُّ أَنْ تَرَى بَعْضَ عَجَائِبِ هَذَا الْمَكَانِ ؟ أَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْكَهْفِ ؛ لَقَدْ
اشْتَغَلَ عَشْرَاتُ آلَافٍ مِنَ الرِّجَالِ سَنَوَاتٍ عَدِيدَةً فِي إِثْشَائِهِ . وَكَانَ
شَعْبُ حُورٍ مِثْلَ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ : فَقَدْ كَانُوا يُفَكِّرُونَ فِي الْمَوْتِ أَكْثَرَ
مِمَّا يُفَكِّرُونَ فِي الْأَحْيَاءِ . » وَأَشَارَتْ إِلَى بَعْضِ الْكِتَابَاتِ عَلَى الْحَائِطِ ،
فَرَفَعَ الْخَادِمَانِ يَدَيْهِمَا بِالْمَشَاعِلِ ، وَقَرَأَتْ لِي :

« فِي هَذَا الْعَامِ ، الَّذِي يُوَافِقُ مُرُورَ أَرْبَعَةِ آلَافٍ وَمِئَتَيْنِ وَتِسْعٍ
وَحَمْسِينَ سَنَةً عَلَى إِثْشَاءِ مَدِينَةِ حُورٍ ، ثُمَّ فِي عَهْدِ « تِسْنُو » مَلِكِ
حُورٍ ، عَمِلَ هَذَا الْكَهْفُ لِيَكُونَ مَوْضِعَ رَاحَةٍ لِلْمَوْتَى . »

ثُمَّ التَفَتْتُ إِلَيَّ قَائِلَةً : « أَتَعْلَمُ ، يَا هُولِي ، أَنَّنِي أَعْرِفُ هَذَا

آخِرُ يُؤَدِّي إِلَى أَسْفَلٍ ، وَفَجَاءَ أَنْتَهَى هَذَا الْمَمَرُ . وَرَفَعَ الْخَادِمَانِ يَدَيْهِمَا
بِالْمَشْعَلَيْنِ فَرَأَيْتُ مَشْهَدًا لَنْ أَرَى مِثْلَهُ فِي حَيَاتِي ، وَلَا أَتَمَنَّى أَنْ أَرَى
مِثْلًا لَهُ !

كُنَّا نَقِفُ عَلَى شَفَا هُوَّةٍ عَمِيقَةٍ فِي الصَّخْرِ تَبْلُغُ مِنَ الْإِتْسَاعِ وَالْعُمُقِ
حَدًّا يَجْعَلُ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَوْضَعَ بِهَا قَصْرٌ ضَخْمٌ . وَكَانَتْ الْهُوَّةُ
مَمْلُوءَةً بِأَكْدَاسٍ مِنَ الْعِظَامِ الْبَيْضَاءِ ، وَآلَافِ الْجُثَثِ وَالْهَيَاكِلِ
الْعَظْمِيَّةِ .

أَطْلَقْتُ صِيْحَةً دُغِرَ وَدَهَشَتْ ، فَتَرَدَّدَ صِدَاها فِي أَرْجَاءِ ذَلِكَ الْمَكَانِ
الْوَاسِعِ ، حَتَّى إِنَّ جُمُجُمَةً كَانَتْ مُسْتَقِرَّةً فَوْقَ كَوْمَةِ الْعِظَامِ مِنْذُ



آلَافِ السِّنِينَ ، تَدَخَّرَجَتْ وَجَرَفَتْ مَعَهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْعِظَامِ
وَالْجَمَاجِمِ ، وَكَأَنَّ الْحَيَاةَ دَبَّتْ فِي الْمَكَانِ مِنْ جَدِيدٍ .

قُلْتُ : « هَيَّا بِنَا فَقَدْ رَأَيْتُ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ . »

انْعَطَقْتُ « شَيْءٌ » فِي مَمَرٍ جَانِبِي يَبْدَأُ مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي جِئْنَا مِنْهُ ،
وَقَالَتْ : « لَقَدْ ظَلَّ شَعْبُ مَدِينَةِ خُورٍ يَحْفَظُ جُثَّتِ الْمَوْتَى مِنْهُمْ حَتَّى
الْوَقْتِ الَّذِي تَزُلُ بِهِمْ ذَلِكَ الْوَبَاءُ ، وَسَوْفَ تَرَى هَذَا بِنَفْسِكَ . »

دَخَلْنَا إِلَى غُرْفَةٍ صَغِيرَةٍ تُمَاطِلُ تِلْكَ الَّتِي قَضَيْتُ فِيهَا لَيْلَتِي فِي أَوَّلِ
مَكَانٍ تَوَقَّفْنَا فِيهِ ، وَكَانَ بِهَا رَفَانٌ حَجَرِيَّانِ . وَكَانَتْ فَوْقَ كُلِّ مِنْهُمَا
جُثَّةٌ مُعْطَاةٌ بِالْقِمَاشِ .

قَالَتْ : « اِرْفَعْ الْقِمَاشَ يَا هُولِي . » وَلَمَّا تَوَانَيْتُ أَرَاخَتِ الْقِمَاشَ
بِنَفْسِهَا ، فَكَشَفَتْ عَنْ جُثَّةِ أَمْرَأَةٍ فِي الْخَامِسَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عُمرِهَا :
كَانَ وَجْهُهَا سَلِيمًا مِثْلَ وَجْهِهِ الْأَحْيَاءِ ، وَبَدَتْ كَأَنَّهَا نَائِمَةٌ . وَكَانَتْ
تُحْتَضِنُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا طِفْلًا وَجْهُهُ نَحْوَ صَدْرِهَا . كَانَ مَشْهَدًا خُلُوعًا
وَمُؤَثِّرًا حَتَّى إِنِّي أَسْرَعْتُ بِالْإِبْتِعَادِ .

وَكَانَتْ عَلَى الرَّفِّ الْحَجَرِيِّ الْآخِرِ جُثَّةٌ زَوْجِهَا : وَكَانَ رَجُلًا مُسِنًا
أَشْيَبَ اللَّحْيَةِ . وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ تُوُفِّيَ بَعْدَهَا بِسَنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ وَجِيءَ بِهِ إِلَى
هَذَا الْمَكَانِ لِيَسْتَقَرَّ بِجِوَارِ زَوْجَتِهِ وَطِفْلِهِ .

دَخَلْنَا مَقَابِرَ أُخْرَى ، وَكَانَ حِفْظُ الْجُثَثِ فِي بَعْضِهَا غَيْرَ مُتَّقِنٍ ،
لِدَرَجَةِ أَنَّ الْجُثَّةَ كَأَنَّهَا تَتَحَلَّلُ بِمُجَرَّدِ لَمْسِهَا . أَمَّا مُعْظَمُ الْمَقَابِرِ فَقَدْ
كَانَ حِفْظُ الْجُثَثِ فِيهَا مُتَّقِنًا ، وَبَدَأَ الْمَوْتَى وَكَأَنَّهُمْ نَائِمُونَ .

قَالَتْ أَخِيرًا : « نَعَالَ ، سَأُرِيكَ » تَسْتَوِ « الْمَلِكُ الْعَظِيمُ . »

قُلْتُ : « لَقَدْ رَأَيْتُ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ . فَلَنْبَتَعِدَ عَنْ هَذَا الْمَكَانِ . »

الفصل الحادي والعشرون عائشة وليو

عِنْدَمَا عُدْنَا إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ انْتَفَتَتْ إِلَيَّ فَجَاءَةً وَقَالَتْ : « سَوْفَ
آتِي مَعَكَ لِأَرَى هَذَا الشَّابَّ الَّذِي تُسَمِّوهُ الْأَسَدَ ؟ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ
الْمَرَضُ قَدْ أَخَذَ مَجْرَاهُ ، وَسَوْفَ أُنْقِذُهُ إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ . إِذْهَبْ
إِلَيْهِ ، وَسَالِحُكَ بِكَ بَعْدَ أَنْ أَنْتَهِيَ مِنْ تَجْهِيزِ مَا يَلُزِمُ . »

وَجَدْتُ كَلًّا مِنْ جُوبٍ وَأَوْسْتَانٍ فِي حَالَةٍ حُزْنٍ شَدِيدٍ ، وَقَالَا لِي :
« إِنَّ لِيُوَ يُحْتَضَرُ ، وَقَدْ بَحَثْنَا عَنْكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ . »

وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّهُ لَنْ تَنْقُضِي سَاعَةً ، بَلْ لَنْ تَنْقُضِي بِضْعَ دَقَائِقٍ حَتَّى
يَصِلَ إِلَى حَالَةٍ لَا يُجْدِي مَعَهَا الْعِلَاجُ ، وَلَمْتُ نَفْسِي عَلَى تَرْكِي إِيَّاهُ .
أَمَّا جُوبٌ فَقَدْ رَاحَ يَبْكِي بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ ، وَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ غَادَرَ
الْحُجْرَةَ لِيُخْفِيَ حُزْنَهُ . وَبَعْدَ ذَلِكَ عَادَ مُسْرِعًا إِلَى الْعُرْفَةِ وَقَدْ وَقَفَ
شَعْرُ رَأْسِهِ فَرْعًا ، وَصَاحَ : « فَلْيُسَاعِدْنَا اللَّهُ يَا سَيِّدِي ! إِنَّ شَخْصًا
مَا قَدْ أَتَى مِنْ قَبْرِهِ ، وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَيْنَا عَبْرَ هَذَا الْمَمَرِ . »

وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ رَأَى عَائِشَةَ مُسَحَّحَةً بِغِلَالِهَا الشَّيْبَةَ يَكْفِنُ الْمَوْتَى .
وَدَخَلَتْ عَائِشَةُ الْحُجْرَةَ ، فَجَرَى جُوبٌ مَدْعُورًا نَحْوَ رُكْنٍ مِنْ
أَرْكَانِهَا .

قُلْتُ لِعَائِشَةَ : « لَقَدْ جِئْتَ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ يَا عَائِشَةُ ، فَصَدِّيقِي
يَرْقُدُ عَلَى شَقَا الْمَوْتِ . »

قَالَتْ : « إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ مَاتَ ، فَإِنِّي أُسْتَطِيعُ أَنْ أُعِيدَ إِلَيْهِ حَيَاتَهُ .
أَطْلُبُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَتِلْكَ الْفَتَاةِ أَنْ يُغَادِرَا الْمَكَانَ . »

انْصَرَفَ جُوبٌ عَلَى الْفَوْرِ ، أَمَّا أَوْسْتَانُ فَبَقِيَ . وَهَمَسْتُ وَقَدْ

تَقَاسَمَهَا خَوْفُهَا مِنَ الْمَلِكَةِ وَقَلَقُهَا عَلَى لُيُو : « مَاذَا تُرِيدُ « شَيْءٌ » ؟
أَلَا يَحِقُّ لِلزَّوْجَةِ أَنْ تَبْقَى إِلَى جِوَارِ زَوْجِهَا ؟ »

قَالَتْ « شَيْءٌ » : « انْصَرِفِي ! » فَخَرْتُ أَوْسْتَانَ عَلَى يَدَيْهَا
وَرُكْبَتَيْهَا وَغَادَرْتُ الْعُرْفَةَ .

انْتَجَهْتُ عَائِشَةَ إِلَى الْفِرَاشِ الَّذِي كَانَ يَرْقُدُ عَلَيْهِ لُيُو ، وَأَزَاحَتْ عَنْهُ
الْغِطَاءَ لِنَظَرٍ إِلَى وَجْهِهِ . وَسَمِعْتُ صَرْخَةً رَهِيئَةً ، وَرَأَيْتُهَا تَتَرَجَّعُ
وَكَانَ صَاعِقَةً أَصَابَتْهَا .

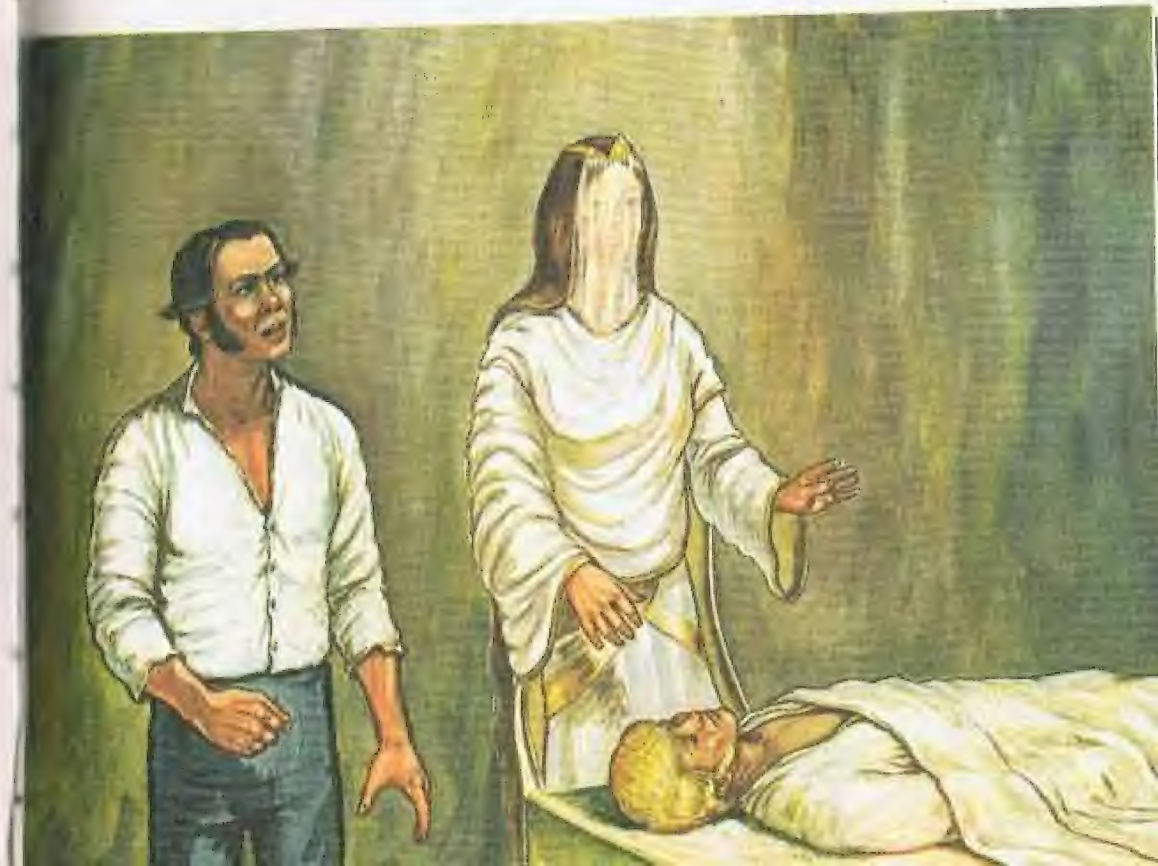
سَأَلْتُهَا : « مَاذَا حَدَّثَ يَا عَائِشَةُ ؟ هَلْ مَاتَ ؟ »

انْدَفَعَتْ نَحْوِي كَالْحَيَوَانِ الْهَائِجِ وَصَاحَتْ : « لِمَاذَا أُخْفِيتُ ذَلِكَ
عَنِّي ؟ هَا هُوَ ذَا حَبِيبِي كَالِيكَرَاتِسِ الْمَفْقُودِ قَدْ عَادَ إِلَيَّ أَخِيرًا ! » ثُمَّ
بَدَأَتْ تَضْحَكُ وَتَبْكِي كَمَا تَفْعَلُ آيَةُ أَمْرَأَةٍ فِي لَحْظَةٍ فَرَحٍ غَامِرٍ .

قُلْتُ : « إِنْ لَمْ تَفْعَلِي شَيْئًا لِنَتَقْذِي حَبِيبِكَ كَالِيكَرَاتِسِ ، فَلَنْ يُجْلِدَنِي
مَعَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَيْ عِلَاجٍ . »

وَأَخْرَجَتْ مِنْ تَحْتِ ثَوْبِهَا بَرَطْمَانًا صَغِيرًا ، وَقَالَتْ : « صَبَّ مَا فِيهِ
فِي فَمِهِ . اسْرِعْ ! إِنَّهُ يُحْتَضَرُ . »

وَكَانَتْ اللَّحْظَةُ الْمُنَاسِبَةَ : فَقَدْ رَمَدَ وَجْهُهُ ، وَخَفَّتْ أَنْفَاسُهُ .
وَأَنْفَعَرَ فَمُهُ ؛ فَأَمْسَكْتُ عَائِشَةَ رَأْسَهُ وَصَبَبْتُ السَّائِلَ فِي فَمِهِ . وَاعْتَرَى



لِيُوْتَعِيرَ بَطِيءٌ : فَقَدِ ارْزَقَ وَجْهَهُ ، وَبَدَتْ ضَرْبَاتُ قَلْبِهِ وَكَانَتْهَا قَدْ تَوَقَّفَتْ ، وَكَانَتْ قَدْ ضَعُفَتْ قَبْلَ ذَلِكَ . وَنَظَرَتْ إِلَى عَائِشَةَ : كَأَنَّهَا لَا تَزَالُ تُمَسِّكُ بِرَأْسِ لِيُو وَكَانَتْ شَحَبَ وَجْهَهَا ، وَكَانَتْ عَيْنَاهَا أَشْبَهَ بِبَحْرِ تَتَلَاطَمُ فِيهِ أَمْوَاجُ الْحُبِّ وَالْخَوْفِ . وَبَدَأَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهَا لَمْ تَدْرِي إِنْ كَانَ سَيَعِيشُ أَمْ سَيَمُوتُ .

وَأَنْقَضَتْ خَمْسُ دَقَائِقَ ، وَرَأَيْتُ أَنَّهَا بَدَأَتْ تَقْفِدُ الْأَمَلَ ، فَسَأَلْتُهَا : « هَلْ فَاتَ الْأَوَانُ ؟ » فَأَخْفَتُ رَأْسَهَا بَيْنَ كَفَيْهَا ، وَلَمْ تُجِبْ . وَعِنْدَئِذٍ سَمِعْتُ لِيُو يَتَنَفَّسُ نَفْسًا عَمِيقًا ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَرَأَيْتُ الْحَيَوِيَّةَ تَكْسُو وَجْهَهُ ببطءٍ ، ثُمَّ انْقَلَبَ عَلَى جَانِبِهِ .

هَمَسَتْ « شَيْءٌ » قَائِلَةً : « لَقَدْ أَتَقَدَّ ! » وَأَخَذَتْ تَبْكِي حَتَّى كَادَ قَلْبُهَا أَنْ يَنْفَطِرَ .

كَفَتْ عَنِ الْبُكَاءِ وَقَالَتْ : « سَيَنَامُ اأَنْتِي عَشْرَةَ سَاعَةٍ ، وَعِنْدَمَا يَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمِهِ سَيَكُونُ قَدْ شَفِيَ ثَمَامًا . » ثُمَّ مَسَحَتْ بِيَدِهَا بِرَفْقٍ عَلَى شَعْرِهِ الذَّمْبِيِّ ، وَقَبَّلَتْهُ وَهَبَّتْ وَاقِفَةً .

الفصل الثاني والعشرون انصرف في أيتها المرأة !

وَقَفْتُ عَائِشَةَ لَحْظَةً ، ثُمَّ خَطَرُ بِيَالِهَا شَيْءٌ ، فَقَالَتْ : « لَقَدْ كِدْتُ أُنْصِي تِلْكَ الْمَرْأَةَ أَوْسْتَان ، مَا هِيَ صِلَتُهَا بِكَالِيكَرَاتِس ؟ هَلْ هِيَ خَادِمَتُهُ ؟ »

قُلْتُ : « إِنِّي أَفْهَمُ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ وَفَقَا لِنَتَالِيدِ شَعْبِ الْأَمَاهَجِرِ ، وَلَكِنِّي لَا أَعْرِفُ مَدَى صِحَّةِ ذَلِكَ . »

فَارْبَدَ وَجْهَهَا ، وَقَالَتْ : « إِذَا يَجِبُ أَنْ تَمُوتَ . »

صَبَحْتُ مُتَسَائِلًا : « لِمَاذَا ؟ لِمَاذَا ؟ مَاذَا جَنَتْ ؟ هَلْ سَتُظْهِرِينَ مَعَادَتَكَ بِعَوْدَةِ كَالِيكَرَاتِسِ إِلَيْكَ بِأَنْ تَقْتُلِي شَخْصًا يُحِبُّهُ ؟ لَقَدْ قُلْتُ إِنَّكَ آرْتَكِبِينَ فِيمَا مَضَى خَطَأً شَنِيعًا ضِدَّ هَذَا الرَّجُلِ بِأَنْ قَتَلْتِهِ بِيَدَيْكَ ، لِأَنَّ أَمِينَارْتاسَ الْمِصْرِيَّةَ الَّتِي أَحَبَّهَا ... »

فَقَاطَعَتْنِي مُتَسَائِلَةً : « كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ ؟ إِنِّي لَمْ أُخْبِرْكَ بِهَذَا قَطُّ ! »

لَقَدْ فَاجَأَنِي بِسُؤَالِهَا ، وَلَمْ أَكُنْ قَدْ ذَكَرْتُ شَيْئًا لِأَحَدٍ عَنِ
الصُّنْدُوقِ الْحَدِيدِيِّ وَمَا كَانَ يَحْتَوِيهِ .

قُلْتُ : « لَعَلِّي ... لَعَلِّي كُنْتُ أَحْلُمُ . »

وَلَكِنَّ عَائِشَةَ لَمْ تَكُنْ تُنْصِتُ لِمَا أَقُولُ ؛ فَقَدْ وَقَفْتُ صَامِتَةً لِحُظَّةٍ ،
ثُمَّ بَدَتْ وَكَأَنَّهَا تُفَكِّرُ بِصَوْتٍ عَالٍ .

قَالَتْ : « سَوْفَ أَنْصَرِفُ بِرَحْمَةٍ . لَسْتُ قَاسِيَةً ، وَلَا أُحِبُّ أَنْ
أَرَى أَحَدًا يَتَعَذَّبُ ، أَوْ أَنْ أَتَسَبَّبَ فِي عَذَابِ أَحَدٍ . » ثُمَّ اسْتَدَارَتْ إِلَيَّ
قَائِلَةً : « اسْتَدْعِهَا بِسُرْعَةٍ قَبْلَ أَنْ أُغَيِّرَ رَأْيِي . »

خَرَجْتُ إِلَى الْمَمَرِّ وَنَادَيْتُ أَوْسْتَانَ ، فَأَقْبَلَتْ تَحْوِي وَسَأَلْتَنِي :
« هَلْ مَاتَ سَيِّدِي ؟ لَا تَقُلْ إِنَّهُ مَاتَ . »

قُلْتُ : « إِنَّهُ حَيٌّ ، فَقَدْ أَنْقَذَتْ « شَيْ » حَيَاتُهُ . »

وَخَرْتُ أَوْسْتَانَ رَاكِعَةً عَلَى رُكْبَتَيْهَا وَيَدَيْهَا عِنْدَمَا كَانَتْ فِي حَضْرَةِ
عَائِشَةَ الَّتِي قَالَتْ بِصَوْتٍ مُفْعَمٍ بِالْبُرُودِ : « انْهَضِي ! تَعَالَيْ إِلَى هُنَا !
مَنْ هَذَا الرَّجُلُ ؟ »

أَجَابَتْ أَوْسْتَانَ : « إِنَّهُ زَوْجِي ، وَقَدْ تَزَوَّجْتُهُ يَا مَوْلَاتِي وَفَقًا لِتَقَالِيدِ
بِلَادِنَا . »

قَالَتْ عَائِشَةُ : « لَقَدْ آرَتَكَبْتَ إِثْمًا بِزَوَاجِكَ بِهَذَا الرَّجُلِ الْغَرِيبِ . »

إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَوْمِكَ ، وَلَا تَسْرِي التَّقَالِيدُ عَلَيْهِ . عَوْدِي إِلَى مَوْطِنِكَ ،
وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَحَدَّثَنِي إِلَيْهِ ، أَوْ أَنْ تُقَابِلِيهِ مَرَّةً أُخْرَى . انْصَرِفِي ! »

وَلَكِنَّ أَوْسْتَانَ لَمْ تَتَحَرَّكَ ، فَصَاحَتْ بِهَا عَائِشَةُ : « انْصَرِفِي أَيْتُهَا
الْمَرْأَةُ ! »

فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا أَوْسْتَانَ وَقَالَتْ : « لَا ، لَنْ أَنْصَرِفَ . إِنَّهُ زَوْجِي وَأَنَا
أُحِبُّهُ ، وَلَنْ أَتْرُكَهُ . وَلَيْسَ مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَأْمُرَنِي بِتَرْكِ زَوْجِي . »
قُلْتُ : « الرَّحْمَةُ يَا عَائِشَةُ ! كُونِي رَحِيمَةً ! »

فَقَالَتْ بِرُودٍ : « لَوْ لَمْ أَكُنْ رَحِيمَةً لَكَانَتْ آلَانُ فِي عِدَادِ
الْأَمْوَاتِ . انْصَرِفِي أَيْتُهَا الْمَرْأَةُ قَبْلَ أَنْ أَفْتِكَ بِكَ . »

قَالَتْ أَوْسْتَانَ : « لَنْ أَنْصَرِفَ ! إِنَّهُ لِي ، إِنَّهُ لِي . لَقَدْ أَنْقَذَتْ
حَيَاتُهُ ، وَلَنْ أَتْرُكَهُ أَبَدًا ! »

وَأَنْتِ عَائِشَةُ بِحَرَكَةِ خَاطِفَةٍ لَمْ أَتَبَيَّنْهَا لِفَرْطِ سُرْعَتِهَا . وَيَبْدُو أَنَّهَا
ضَرَبَتْ أَوْسْتَانَ بِيَدِهَا بِخَفَةٍ فَوْقَ رَأْسِهَا ، فَوَضَعَتْ الْفَتَاةُ يَدَيْهَا عَلَى
رَأْسِهَا وَسَقَطَتْ عَلَى ظَهْرِهَا . فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا وَصَرَخْتُ إِذْ رَأَيْتُ عَلَى شَعْرِ
أَوْسْتَانَ الدَّاكِنِ آثَارًا لِأَصَابِعِ ثَلَاثَةِ لَوْنُهَا أَبْيَضُ مِثْلُ الثَّلَاجِ .

ضَحِكْتُ عَائِشَةُ وَقَالَتْ : « أَتُظَنِّينَ أَيْتُهَا الْغَيْبَةُ أَنَّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ
أَقْتُلَ ؟ أَنْظُرِي فِي هَذِهِ الْمِرَاقِ — وَالْآنَ أَنْصَرِفِي قَبْلَ أَنْ أَضْرِبَكَ ثَانِيَةً . »

وَلَا تُكْثِرْ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِّي . »

وَخَرَجَتْ ، وَجَاءَ الْخَدَمُ بَعْدَ قَلِيلٍ لِيَنْقُلُوا أَشْيَاءَنَا .



وَنَظَرْتُ أَوْشَانٍ فِي مِرَاةٍ لِيُو الْمُعَلَّقَةِ عَلَى الْحَائِطِ ، فَقَالَتْ لَهَا
عَائِشَةُ : « إِنِّي لَوْ رَأَيْتُكَ مَرَّةً أُخْرَى لَسَحَقْتُ عِظَامَكَ وَجَعَلْتُهَا
مَسْحُوقًا أَشَدَّ بَيَاضًا مِنْ تِلْكَ الْعَلَامَاتِ الَّتِي تَرَكْتُهَا عَلَى شَعْرِكَ . »

وَجَرَّتِ الْفَتَاةُ مِنَ الْحُجْرَةِ ، وَاسْتَدَارَتْ عَائِشَةُ نَحْوِي قَائِلَةً :
« سَأَمُرُّ خَدَمِي بِأَنْ يَحْمِلُوا سَيِّدِي كَالِيكَرَاتِسَ إِلَى حُجْرَةِ قَرِيبَةٍ مِنْ
حُجْرَتِي ، حَتَّى يَتَسَنَّى لِي أَنْ أَسْهَرَ عَلَيْهِ وَأَكُونَ مُسْتَعِدَّةً عِنْدَمَا
يَسْتَقِظُ . وَسَوْفَ تَأْتِي أَنْتَ وَخَادِمُكَ أَيْضًا . وَنَظَرْنَا لِأَنَّكَ حَرِيصٌ عَلَى
حَيَاتِكَ ، فَلَا تَقُلْ شَيْئًا لِكَالِيكَرَاتِسَ عَنْ كَيْفِيَّةِ ذَهَابِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ ؛

وَأَسْتَعْرِقَ لِيَوْمٍ فِي النَّوْمِ مَرَّةً أُخْرَى .

وَفِي الْيَوْمِ الْتَالِي كَانَ قَدْ اسْتَرَدَّ عَافِيَتَهُ تَقْرِيْبًا وَالتَّامَّتْ جِرَاحُهُ .
وَأَسْتَمَرَّتْ عَائِشَةُ تَقُومُ عَلَى خِدْمَتِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكْفُ عَنِ السُّؤَالِ عَنْ
أَوْسْتَانَ . وَتَمَلَّكَهُ فَضُولٌ شَدِيدٌ إِزَاءَ عَائِشَةَ ، وَطَلَبَ مَرَاتٍ عَدِيدَةً أَنْ
يَرَى وَجْهَهَا . وَرَغِمَ أَنْفِي لَمْ أَقُلْ لَهُ شَيْئًا عَنْهَا إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا
الْمَرْأَةُ الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا مَكْتُوبًا عَلَى شَقَفَةِ الْحَجَرَةِ .

وَفِي الْيَوْمِ الْتَالِي ، وَبَعْدَ أَنْ فَرَعْنَا مِنْ تَنَاوُلِ طَعَامِ الْإِفْطَارِ ،
لَوَّحْنَا إِلَى غُرْفَةِ عَائِشَةَ . وَكَانَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ فِي أَنْ يَشْكُرَهَا عَلَى مَا فَعَلَتْهُ
مِنْ أَجْلِهِ ، وَيَسْأَلَهَا عَنْ أَوْسْتَانَ .

قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ : « لَكَ نَحِيَّاتِي ، وَيَسِّرُنِي أَنْ أُرَاكَ وَقَدْ اسْتَرَدَدْتَ
عَافِيَتَكَ . »

الْحَنَى لِيَوْمٍ لَهَا ، وَشَكَرَهَا عَلَى مَا فَعَلَتْهُ مِنْ أَجْلِهِ بِأَحْسَنِ مَا يَعْرِفُهُ
مِنْ عِبَارَاتٍ بِالْعَرَبِيَّةِ . فَأَجَابَتْهُ عَائِشَةُ بِقَوْلِهَا : « أَرْجُو أَنْ يَكُونَ خِدْمَتِي
قَدْ أَحْسَنُوا رِعَايَتَكَ . هَلْ مِنْ خِدْمَةٍ أَوْدِيهَا لَكَ ؟ »

فَأَجَابَهَا لِيَوْمٍ : « نَعَمْ . أَوَدُّ أَنْ أَعْرِفَ أَيْنَ تِلْكَ الْمَرْأَةُ أَوْسْتَانَ الَّتِي
كَانَتْ مَعِي . »

أَجَابَتْ عَائِشَةُ : « آه ، نَعَمْ ! الْفَتَاةُ ! نَعَمْ ، لَقَدْ قَالَتْ إِنَّهَا

الفصل الثالث والعشرون الرَّقْصَةُ

حَانَ وَقْتُ اسْتِيقَاطِ لِيَوْمٍ وَفَقًّا لِتَقْدِيرِ عَائِشَةَ الَّتِي دَخَلَتْ الْحَجَرَةَ قَبْلَ
أَنْ يَسْتَيْقِظَ ، وَقَالَتْ : « سَتَرَى ، يَا هَوْلِي ، عِنْدَمَا يَسْتَيْقِظُ ، كَيْفَ
زَالَ عَنْهُ الْمَرَضُ . »

وَمَا إِنْ قَالَتْ ذَلِكَ حَتَّى ثَقُلَ لِيَوْمٍ فِي فِرَاشِهِ ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ . وَلَمَّا
رَأَى عَائِشَةَ قَالَ لَهَا : « أَهْلًا يَا أَوْسْتَانَ ! لِمَذَا تُعْطِينَ رَأْسَكَ هَكَذَا ؟
أَهْلًا يَا جُوب ! كَيْفَ حَالَتِي الْآنَ ؟ »

أَجَابَهُ جُوب : « لَا أَعْرِفُ فِي الْوَاقِعِ يَا سَيِّدِي ! سَأَذْهَبُ لِأَحْضِرَ
لَكَ بَعْضَ اللَّبَنِ . »

وَنَظَرَ لِيَوْمٍ إِلَى عَائِشَةَ ثَانِيَةً ثُمَّ قَالَ : « هَذِهِ لَيْسَتْ أَوْسْتَانَ . أَيْنَ
أَوْسْتَانَ ؟ »

أَجَابَتْهُ عَائِشَةُ : « لَقَدْ انْصَرَفَتْ ، وَحَلَلْتُ أَنَا مَحَلَّهَا . »

سَتَنْصَرِفُ — لَقَدْ أَعَدَدْتُ حَفْلاً رَاقِصاً سَيَقَامُ اللَّيْلَةَ ، فَلَعَلَّكَ تَوَدُّ أَنْ
تَحْضُرَهُ . وَلَكِنْ دَعْنِي أُرِيكَ أَوَّلًا بَعْضَ عَجَائِبِ هَذَا الْكَهْفِ . »

لَمْ يَتِمَكَّنْ لِيُو مِنْ أَنْ يَطْرَحَ آيَةً أُسْبَلِيَّةً أُخْرَى ، فَقَدْ أَمَرَتْ عَائِشَةُ
اِثْنَيْنِ مِنْ خَدَمِهَا أَنْ يُحْضِرَا الْمَشَاعِلَ وَسَارَتِ أَمَامَنَا . وَأَرَتْنَا كِتَابَاتِ
الْكَهْفِ الْكَبِيرِ ، وَالْحَجَرَ الْمُسْتَدِيرَ ، وَالْوَهْدَةَ الْعَمِيقَةَ ، وَكَثِيرًا مِنْ
جُثِّ الْمَوْتَى الْمَحْفُوظَةِ فِي الْمَقَابِرِ .

وَكَانَ لِيُو ، بِطَبِيعَةِ الْحَالِ ، شَدِيدَ الْإِهْتِمَامِ بِكُلِّ مَا رَأَهُ ، أَمَّا جُوب
فَقَدْ كَانَ مَرْعُوبًا .

تَنَاوَلْنَا غَدَائَنَا وَاسْتَرَحْنَا ، وَعُدْنَا فِي السَّاعَةِ السَّادِسَةِ إِلَى حُجْرَةِ
عَائِشَةَ ، حَيْثُ أَرَادَ جُوبُ رُغْبًا عِنْدَمَا أُتِيحَتْ لَهُ فُرْصَةُ مُشَاهَدَةِ
الصُّورِ فِي الْمَاءِ . وَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَالِي لِيُبَلِّغَنَا أَنَّ الْحَفْلَ الرَّاقِصَ مُهِمًّا
لِأَنْ يَبْدَأَ .

كَانَ مِنَ الْمَقَرَّرِ أَنْ يَبْدَأَ الْحَفْلُ فِي الْهَوَاءِ الطَّلُقِ فِي تِلْكَ الْمَسَاحَةِ
الْوَاسِعَةِ وَالْمَكْشُوفَةِ أَمَامَ الْكَهْفِ الْكَبِيرِ . وَكَانَتْ الْمَحَافُ قَدْ صُفِّتْ
مِنْ أَجْلِهَا فِي مَدْخَلِ الْكَهْفِ .

كَانَ الْمَكَانُ مُظْلِمًا ، فَتَسَاءَلْتُ كَيْفَ سَيَتَسَنَّى لَنَا أَنْ نُشَاهِدَ
الرَّقْصَ ؟ وَفَجْأَةً شَاهَدْنَا عَدَدًا مِنَ الرُّجَالِ قَادِمِينَ مِنْ كُلِّ رُكْنٍ يَجْمِلُونَ

أَشْيَاءَ مُشْتَعِلَةً بِنَارِ سَاطِعَةٍ عَلَى أَكْتَافِهِمْ ، ثُمَّ الْقَوْهَا فِي شَكْلِ كَوْمَةٍ فِي
مُتْلَصِفِ الْأَرْضِ الْمَكْشُوفَةِ . وَكَانَ لِيُو أَوَّلَ مَنْ أَكْشَفَ كُنْهَ تِلْكَ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي كَانُوا يَحْمِلُونَهَا ، إِذْ صَاحَ قَائِلًا :

« يَا لِلْعَجَبِ ! إِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْمُشْتَعِلَةَ إِنَّ هِيَ إِلَّا جُثُّ الْمَوْتَى !
إِلَهَا الْجُثِّ الْمَحْفُوظَةِ الَّتِي رَأَيْنَاهَا ، وَهِيَ تَحْتَرِقُ آلَانَ كَالشَّمْعِ . »

بَعْدَ أَنْ تَوَقَّرتِ الْإِضَاءَةُ جَاءَ الرَّاقِصُونَ : كَانَ ثَمَّةَ مِئَةِ رَجُلٍ تَقْرِيْبًا
وَمِئَةِ امْرَأَةٍ ، قَدِمُوا فِي صَمْتٍ فِي صَفَّيْنِ ، وَأَدَّوْا الرَّقْصَةَ فِي صَمْتٍ تَامٍ .
وَبَدَأَ أَنَّ الرَّقْصَةَ كَانَتْ تُحْكِي قِصَّةَ قَتْلِ مُحِبَّةٍ ، وَلَكِنِّي لَمْ أُسْتَطِعْ
أَنْ أَفْهَمَهَا جَيِّدًا وَلَكِنَّهَا كَانَتْ فِي مُجْمَلِهَا شَيْئًا بَغِيضًا لِلْعَايَةِ .

وَرَأَيْتُ مَا بَدَأَ لِي كَأَنَّهُ فَرْدٌ يَمْشِي حَوْلَ النَّارِ ، ثُمَّ جَاءَ أَسَدٌ وَبَقَرٌ
وَهَبَاءُ الْمَاءِ ، وَحَيَوَانَاتٌ أُخْرَى ، وَحَيَّةٌ ضَخْمَةٌ .

وَلَمْ تُكُنْ تِلْكَ الْحَيَوَانَاتُ سِوَى أَشْخَاصٍ لَبَسُوا جُلُودَ تِلْكَ
الْحَيَوَانَاتِ ، وَلَمَّا تَجَمَّعُوا كُلُّهُمْ أَخَذُوا يَرْقُصُونَ ، وَكُلُّ مِنْهُمْ يُصْدِرُ
صَوْتَ الْحَيَوَانِ الَّذِي يَلْبَسُ جِلْدَهُ .

سَأَلْتُ عَائِشَةَ إِنْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ لِي أَنَا وَلِيُو أَنْ نُغَيِّرَ مَكَانَنَا حَتَّى
نَرَى تِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ عَنْ كَتَبٍ . وَانْتَقَلْنَا إِلَى مَكَانٍ نَاجِيَةِ الشَّمَالِ ،
فَلَاخِظْتُ أَنْ إِحْدَى الرَّاقِصَاتِ كَانَتْ تَلْبَسُ جِلْدَ لَبُوءَةٍ ، وَكَانَتْ تَرْقُصُ
بِنَشَاطٍ زَائِدٍ ، وَقَدْ أَنْفَصَلَتْ عَنْ بَقِيَّةِ الرَّاقِصِينَ . وَفَجْأَةً جَرَتْ مَارَّةٌ

هَذَا الْلِقَاءُ يَكَادُ يُصَيِّنِي بِالْعَشْيَانِ .

وَسَمِعْتُهَا تَهْمِسُ : « اِسْتَمِعْ لِي يَا سَيِّدِي ! إِنَّ حَيَاتِي فِي خَطَرٍ ،
وَمَصْنَدُهُ « شَيْءٌ أَلْتِي يَجِبُ أَنْ تُطَاعَ » . أَلَمْ يُخْبِرْكَ صَدِيقُكَ كَيْفَ
أُبْعَدْتَنِي ؟ لَقَدْ أَتَقَدْتُ حَيَاتِكَ ، وَمِنْ أَلْمُوكِدِ أَنْكَ لَنْ تُتَخَلَّى عَنِّي
أَلَا نَ . »

أَجَابَهَا لِيُو : « لَنْ أُنْخَلَى عَنْكَ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . »

قَالَتْ : « لَيْسَ أَمَامَنَا سِوَى شَيْءٍ وَاحِدٍ عَلَيْنَا أَنْ نَفْعَلَهُ ، وَهُوَ أَنْ
نَهْرُبَ عَلَى وَجْهِ السَّرْعَةِ عَبْرَ الْأَرْضِ الْوَاطِئَةِ ، وَلَعَلَّهَا تَسْمَعُنَا
أَلَا نَ . »

وَأَرْتَمَتْ أَوْسْتَانَ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ ، وَمَا إِنْ فَعَلَتْ ذَلِكَ حَتَّى رَأَيْتُ رَأْسَ
الْبُؤَةِ يَمِيلُ لِلْوَرَاءِ ، وَرَأَيْتُ آثَارَ الْأَصَابِعِ الثَّلَاثَةِ الْبَيْضَاءِ تَلْمَعُ فِي ضَوْءِ
النَّارِ . ثُمَّ سَمِعْتُ ضَحْكَةً قَصِيرَةً خَلْفَنَا . وَكَانَتْ ضَحْكَةً « شَيْءٍ »
أَلْتِي جَاءَتْ وَمَعَهَا بِلَالِي وَأَتْنَانِ مِنَ الْخَدَمِ .



بِنَا وَآخَتَفَتْ خَلْفَنَا وَسَطَ الظَّلَالِ ، وَسَمِعْنَاهَا تَقُولُ وَهِيَ تَمُرُّ بِنَا :
« اِتَّبِعَانِي ! » وَعَرَفْنَا مِنْ صَوْتِهَا أَنَّهَا أَوْسْتَانُ .

وَأَسْتَدَارَ لِيُو فِي الْحَالِ وَتَبِعَهَا ، وَتَبِعْتُهُ أَنَا أَيْضًا وَالْخَوْفُ مِنْ مَعِيَّةِ

الفصل الرابع والعشرون السحر

سَادَ الْمَكَانَ صَمْتُ رَهِيْبٍ كَسَرَتْهُ عَائِشَةُ حِيْنَ قَالَتْ : « أُوسْتَان !
إِنِّي مَا كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَعَرَّفَ عَلَيْكَ بَيْنَ الْآخَرِينَ لَوْ لَمْ أَرِ تِلْكَ
الْعَلَامَاتِ الْبَيْضَاءَ عَلَى شَعْرِكَ . » وَأَشَارَتْ بِيَدِهَا ، فَتَقَدَّمَ الْخَادِمَانِ
وَأَمْسَكَ الْفَتَاةُ مِنْ ذِرَاعَيْهَا ، فَوَثَبَ لِيُوْ إِلَى الْأَمَامِ ، وَطَرَحَ أَحَدُهُمَا
أَرْضًا .

فَقَالَتْ عَائِشَةُ : « لَقَدْ أَحْسَنْتَ طَرَحَ الرَّجُلِ أَرْضًا ، وَلَكِنْ دَعُهُ يُنْفَذُ
مَا أُمِرْتُ بِهِ ، وَلَنْ يُؤْذِيَ الْفَتَاةَ . إِنَّ هَوَاءَ اللَّيْلِ بَارِدٌ ، وَلَنْ يَفْعَلَ الرَّجُلُ
أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا إِلَى حُجْرَتِي . »

وَبَلَعْنَا حُجْرَةَ عَائِشَةَ ، فَأَمَرْتُ جُوبَ وَبِلَالِي بِالْإِنْصِرَافِ ، وَالْتَفَتْتُ
نَحْوِي قَائِلَةً : « هَلْ كَانَ هَذَا مِنْ تَذْيِيرِكَ ؟ »

أَجَبْتُهَا : « لَا ! »

قَالَتْ : « إِذَا فَهَذَا خَطَأُهَا . هَلْ لَدَيْكَ مَا تَقُولِيْنَهُ يَا فَتَاةُ ؟ »

فَأَجَابَتْ أُوسْتَانُ بِصَوْتٍ وَاضِحٍ وَعَمِيقٍ : « إِنِّي لَسْتُ مَلِكَةً ،

وَلَا قَبْلَ لِي بِأَعْمَالِ السَّحْرِ ، وَلَكِنْ قَلْبَ الْمَرْأَةِ الْحَقِيقِيَّةِ يُدْرِكُ
الْحَقِيقَةَ ، وَثَمَّةُ نَوْرٍ يَسْطَعُ دَاخِلِي ، وَبِهَذَا النُّورِ أَرَى الْحَقِيقَةَ . إِنِّي
عِنْدَمَا التَّقَيْتُ بِسَيِّدِي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنِّي سَادَفُ حَيَاتِي ثَمَنًا
لِحُبِّي لَهُ ، وَلَكِنْ حُبِّي كَانَ أَقْوَى مِنَ الْمَوْتِ . وَأَعْرِفُ الْآنَ أَيْضًا ،
وَأَنَا عَلَى شَفَا الْمَوْتِ ، أَنَّكَ لَنْ تَجْنِي شَيْئًا بِقَتْلِي . إِنَّهُ لِي ، وَسَيَظَلُّ
لِي دَائِمًا . وَلَنْ يَنْظُرَ يَوْمًا فِي عَيْنَيْكَ وَيَدْعُوكَ زَوْجَتَهُ . إِنَّ نَهَائِكَ قَدْ
دَنَتْ وَأَرَى ... »

وَدَوْتُ صَرْخَةَ غَضَبٍ ، فَقَدْ نَهَضَتْ عَائِشَةُ وَاقِفَةً ، وَمَدَّتْ ذِرَاعَهَا
نَحْوَ أُوسْتَانٍ وَنَظَرَتْ إِلَيْهَا نَظْرَاتٍ أَشْبَهَ بِالنَّارِ ، حَتَّى إِنَّ أُوسْتَانُ رَفَعَتْ
يَدَيْهَا إِلَى رَأْسِهَا ، وَأَطْلَقَتْ صَرْخَةً وَاحِدَةً ، ثُمَّ سَقَطَتْ عَلَى ظَهْرِهَا ،
فَالْتَفَعْتُ أَنَا وَلِيُوْ نَحْوَهَا ، وَلَكِنْ الْحَيَاةُ كَانَتْ قَدْ فَارَقَتْهَا .

هَبَّ لِيُوْ وَاقِفًا وَاسْتَدَارَ نَحْوَ عَائِشَةَ وَكَانَتْ قَدْ كَشَفَتْ النَّقَابَ عَنْ
وَجْهِهَا ، وَثَبَّتَ عَيْنَيْهَا الْبَرَاقَتَيْنِ عَلَيْهِ ، فَزَالَتْ كُلُّ عِلَامَاتِ الْعُضْبِ
مِنْ وَجْهِهِ ، وَظَلَّ وَاقِفًا مَكَانَهُ وَكَأَنَّهُ تَحَوَّلَ إِلَى حَجَرٍ . وَأَذْرَكْتُ أَنْ
قُوَّتِهَا السَّحَرِيَّةُ قَدْ سَيَّطَرَتْ عَلَى عَقْلِهِ ، وَسَلَبَ جَمَالَهَا لَهُ . ثُمَّ رَأَيْتُهُ
يُقَاوِمُ وَيَدُورُ فِي مُحَاوَلَةٍ مِنْهُ لِلْهَرَبِ مِنْ تَأْثِيرِهَا ، وَلَكِنْ عَيْنُهَا مَنَعَتْهُ .

وَمَشَرَعْتُ تُعْنِي بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ .

وَجَاءَ خَادِمَانِ بِسُرْعَةٍ إِلَى الْحُجْرَةِ وَحَمَلَا جُثَّةَ أُوسْتَانِ وَأَنْصَرَفَا .

الفصل الخامس والعشرون لقاء الميت والحي

كُنْتُ أَشْبَهَ بِمَنْ يَحْلُمُ ، وَأَفْقْتُ مِنَ الْحُلُمِ عِنْدَمَا كَفْتُ عَائِشَةَ عَنِ الْغِنَاءِ . وَأَعْطَيْتُ لِيُو مِشْعَلًا ، وَدَعَّيْنَا أَنْ تَتَّبِعَهَا ، فَسِيرْنَا وَرَاءَهَا ، وَهَبَطْنَا سُلَّمًا تَاكَلْتُ دَرَجَاتِهِ .

قَالَتْ : « لَقَدْ أَهْلَتْ خُطُوتَايَ الصَّخْرَ عَلَى مَدَى الْفَنَى عَامٍ . »

وَسِيرْنَا فِي مَمَرٍ حَتَّى بَلَّغْنَا سِتَارًا كُنْتُ قَدْ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ ، فَقَالَتْ : « كُنْتُ أَرْقُدُ هُنَا كُلَّ لَيْلَةٍ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — هُنَا حَيْثُ يَرْقُدُ . نَعَالَ يَا فَتَايَ لِتُشَاهِدَ مَنْظَرًا رَائِعًا : لِتُشَاهِدَ نَفْسَكَ يَا كَالِيكَرَاتِسَ مِثْلَمَا كُنْتُ أَشَاهِدُكَ طَوَالَ هَذِهِ السَّنِينَ . »

وَأَزَاحَتِ الْغِطَاءَ عَنِ الْجُثَّةِ الْمُمَدَّدَةِ فَوْقَ الصَّخْرَةِ الْبَارِدَةِ قَائِلَةً : « أَنْظُرْ كَيْفَ يَلْتَقِي الْحَيُّ بِالْمَيِّتِ ! »

رَأَيْنَا أَمَامَنَا جُثَّةً مُمَدَّدَةً مَلْفُوفَةً بِرِدَائٍ أَيْضَ ، وَقَدْ حُفِظَتْ بِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ ، وَكَانَتْ أَشْبَهَ بِجِسْمِ لِيُو فَنَسِي ، وَنَظَرْتُ إِلَى لِيُو الْوَاقِفِ حَيًّا

أَمَامِي ، وَإِلَى لِيُو الرَّاقِدِ مَيِّتًا ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَبَيَّنَ فَرْقًا بَيْنَهُمَا .

وَوَقَفَ لِيُو يَنْظُرُ إِلَى الْجُثَّةِ الَّتِي أَمَامَهُ دُونَ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا . وَبَعْدَ لَحْظَةٍ هَمَسَ قَائِلًا : « غَطَّهَا . »

قَالَتْ : « اِنْتَظِرْ ! يَنْبَغِي أَلَّا تُخْفِيَ عَنْكُمَا شُرُورِي . افْتَحِ الْغِطَاءَ مِنْ فَوْقِ الصَّدْرِ يَا هُولِي . »

وَأَزَاحْتُ الْغِطَاءَ جَانِبًا ، فَإِذَا بِجُرْحٍ فَوْقَ الْقَلْبِ مِنْ جَرَاءِ طَعْنَةِ رُمْحٍ . قَالَتْ لِيُو : « لَقَدْ قَتَلْتُكَ فِي قَصْرِ الْحَيَاةِ بِسَبَبِ أُمِينَارْتَاسِ الْمَرْأَةِ الْمِصْرِيَّةِ — أَمَّا الْآنَ فَهَذِهِ الْجُثَّةُ الْبَارِدَةُ لَمْ تَعُدْ سِوَى ذِكْرِي ؛ لَقَدْ آتَهِيَ الْغَرَضُ مِنْهَا . »

وَأَنْزَلْتُ مِنْ فَوْقِ رَفِّ عَالٍ جَرَّةً ضَخْمَةً ، وَأَزَاحْتُ عَنْهَا غِطَاءَهَا ، وَطَبَعْتُ قُبْلَةً رَقِيقَةً فَوْقَ وَجْهِ الْجُثَّةِ الْبَارِدَةِ . ثُمَّ سَكَبْتُ السَّائِلَ الَّذِي فِي الْجَرَّةِ فَوْقَ الْجُثَّةِ ، فَتَصَاعَدَ دُخَانٌ كَثِيفٌ مَلَأَ الْكَهْفَ كُلَّهُ ، وَحَجَبَ الرُّؤْيَا عَنْ أَعْيُنِنَا . وَعِنْدَمَا انْقَشَعَتْ سُحُبُ الدُّخَانِ عَنِ الْجُثَّةِ ، لَمْ تَرَ سِوَى كَوْمَةٍ مِنْ مَسْحُوقٍ أَيْضَ يَتَصَاعَدُ مِنْهُ دُخَانٌ .

قَالَتْ : « انْصَرِفَا الْآنَ لِتَنَامَا ؛ إِذْ عَلَيْنَا أَنْ نَقُومَ بِرِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ غَدًا مَسَاءً . »

لَا أَدْرِي كَيْفَ وَصَلْنَا إِلَى حُجْرَتِنَا : فَقَدْ أَقْنَدْتُ لِيُو مِنْ يَدِي ،

الفصل السادس والعشرون خطئة عائشة

خَرَجْتُ فِي الْيَوْمِ الْتَّالِي مَعَ لَيْو فِي نَزْهَةٍ طَوِيلَةٍ سَبَرًا عَلَى الْأَقْدَامِ ،
شَاهِدُنَا خِلَالَهَا أَفْرَادًا مِنْ شَعْبِ الْأَمَاهَا جِرَ وَهُمْ يَعْمَلُونَ فِي الْحُقُولِ .
وَكَانَ الْبَعْضُ مِنْهُمْ يَنْذُرُ الْحَبَّ مِنْ أَكْيَاسٍ عُلِقَتْ حَوْلَ أَكْتَافِهِمْ ، كَمَا
كَانَ يَفْعَلُ مُزَارِعُونَا مُنْذُ مِائَتِ السَّنِينَ . وَكَمْ كَانَ مُرِيحًا أَنْ تَرَى أَنَا سَاءَ
بُسْطَاءَ يُودُونَ أَعْمَالًا بَسِيطَةً . وَلَمْ تَتَحَدَّثْ فِي هَذِهِ النَّزْهَةِ سِوَى قَلِيلٍ .

وَبَعْدَ أَنْ تَنَاوَلْنَا غَدَاءَنَا تَمَشَّيْنَا ثَانِيَةً ، وَعِنْدَمَا عُدْنَا قَابَلَنَا بِلَالِي وَأَمَرْنَا
أَنْ نَذْهَبَ لِمُقَابَلَةِ « شَيْ » .

وَمَا إِنْ أَنْصَرَفَ الْخَدَمُ حَتَّى طَلَبْتُ مِنَّا عَائِشَةَ أَنْ نَجْلِسَ ، ثُمَّ
قَالَتْ : « يَنْبَغِي يَا كَالِيكَرَاتِس ، قَبْلَ أَنْ نَتَزَوَّجَ ، أَنْ تُصْبِحَ خَالِدًا
مِثْلِي . » وَتَسَاءَلْتُ عَمَّا قَدْ تُصِيرُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ بَعْدَ ذَلِكَ .

« سَوْفَ نَبْدَأُ رِحْلَتَنَا اللَّيْلَةَ قَبْلَ الْغُرُوبِ ، وَسَوْفَ نَصِلُ قَصْرَ الْحَيَاةِ
غَدًا مَسَاءً . وَهُنَاكَ سَتَسْتَجِمُّ فِي النَّارِ ، وَتَسْتَخْرُجُ مِنْهَا إِنْسَانًا لَمْ يَكُنْ
مِثْلَكَ مِنْ قَبْلُ . »



وَعِنْدَمَا عُدْنَا إِلَى الْحُجْرَةِ سَقَطَ عَلَى فِرَاشِهِ يَكَادُ يَبْكِي ، وَأَخَذَ يَصِيحُ :
« لَمْ أُسْتَطِعِ الْإِفْلَاتَ ، لَمْ أُسْتَطِعِ الْإِتِّعَادَ عَنْهَا : فَقَدْ عَجَزْتُ قَدَمَايَ
عَنْ حَمْلِي . وَكَانَ ذِهْنِي صَافِيًا ، وَإِنِّي لِأَشْعُرُ فِي دَاخِلِي بِكَرَاهِيَةٍ
نَحْوَهَا ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَ أُعْتَقِدُ ذَلِكَ . وَلَكِنِّي أُعْرِفُ أَنَّي نَحْتُ سَيِّطَرَتِهَا
وَبِصِفَةٍ دَائِمَةٍ ، وَسَوْفَ أُعْجِزُ أَمَامَهَا مَرَّةً أُخْرَى غَدًا . »

كُنْتُ أَنَا أَيْضًا قَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِدُونِ نِقَابٍ ، وَلَمْ أَكُنْ أُعْرِفُ بِمَاذَا
أُجِيبُهُ ؛ كُنْتُ أُعْرِفُ أَنَّ مَا قَالَهُ صَحِيحٌ .

وَلَمْ أُسْتَطِيعْ أَنْ أَسْمَعَ مَا قَالَهُ لِيَوْمَ رَدِّهَا عَلَى هَذِهِ الْخُطْبَةِ الْمَذْهَلَةِ .
وَوَاصَلْتُ حَدِيثَهَا قَائِلَةً : « أَمَا أَنْتَ يَا هَوْلِي فَإِنَّكَ قَدْ أَذْخَلْتَ السُّرُورَ
إِلَى نَفْسِي ، لَذَا فَإِنَّكَ سَوْفَ تَأْتِي مَعَنَا . »

وَلَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ فِي أَنْ أَعِيشَ أَطْوَلَ مِمَّا هُوَ مُقَدَّرٌ لِي ، وَلَكِنِّي لَمْ
أَقْلُ شَيْئًا . وَسَادَ الْمَكَانَ صَمْتُ ، ثُمَّ سَأَلْتُ :

« أَخْبِرْنِي يَا كَالِيكَرَاتِس ، كَيْفَ حَدَثَ أَنَّكَ جِئْتَ تَبْحَثُ عَنِّي ؟ »
فَأَخْبَرَهَا بِقِصَّةِ الصُّنْدُوقِ الْحَدِيدِيِّ وَمَا بِهِ مِنْ كِتَابَاتٍ .

وَمَا إِنْ أَنْتَهَى مِنْ سَرْدِ الْقِصَّةِ حَتَّى قَالَتْ : « إِذَا هَذِهِ الْمَدْعُوءَةُ
أَمِينَارْتاس ، الَّتِي كَانَتْ تُكْرَهُنِي ، هِيَ فِي الْنَهَايَةِ السَّبَبُ فِي مَجِيئِكَ !
وَالآنَ حَدَّثْنِي عَنْ بَلَدِكَ . إِنَّكَ تَوَدُّ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهَا ، أَنَا لَا أَعْنِي أَنَّهُ يَنْبَغِي
أَنْ تَعِيشَ فِي كَهُوفِ خُورٍ إِلَى الْأَبَدِ ، فَكَمْ يُسْعِدُنِي أَنْ أَتُرْكَهَا . فَإِنَّكَ
سَوْفَ تَحْكُمُ إِنْجَلْتِرَا ... »

قَاطِعَهَا لِيَوْمَ قَائِلًا « لَكِنْ عِنْدَنَا بِالْفِعْلِ مَلِكٌ وَمَلِكَةٌ . »

قَالَتْ عَائِشَةُ : « إِنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُ ، إِذْ مِنَ الْمُمْكِنِ إِبْعَادُهُمَا
أَوْ الْقَضَاءُ عَلَيْهِمَا . » وَحَاوَلْنَا أَنْ نُبَيِّنَ لَهَا أَنَّنَا نَحِبُّ مَلِكَنَا وَمَلِكَتَنَا ،
وَأَنَّنَا لَا نَرْغَبُ فِي الْقَضَاءِ عَلَيْهِمَا ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى .

قَالَتْ : « إِنَّ هَذَا لِأَمْرٍ غَرِيبٍ حَقًّا ! مَلِكٌ وَمَلِكَةٌ يَتِمَّتَعَانِ بِحُبِّ

الشَّعْبِ ! إِنَّ الْعَالَمَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرًا مُنْذُ أَنْ جِئْتُ إِلَى خُور ، إِنَّنِي لَا أَفْهَمُ
شَيْئًا مِمَّا تَقُولُونَ . »

وَحَاوَلْنَا أَنْ نُوضِّحَ لَهَا أَنَّ بِلَادَنَا لَهَا حُكُومَةٌ ، وَأَنَّ لَهَا قَوَانِينَ
مَوْضُوعَةٌ . فَضَحِكَتْ قَائِلَةً : « الْقَانُونُ ! إِنَّنِي فَوْقَ الْقَانُونِ . وَالْآنَ
أَتُرْكَانِي وَأَسْتَعِدُّ لِلرَّحَلَةِ . »

كَانَ هَذَا الْإِلْقَاءُ أَشْبَهَ بِحُلْمٍ سَخِيفٍ . وَبَيْنَمَا كُنَّا عَائِدَيْنِ إِلَى غُرْفَتِنَا ،
تَسَاءَلْتُ : « كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ الْحَالُ إِذَا تَوَلَّى مَلِكٌ حُكْمَ دَوْلَةٍ
إِلَى الْأَبَدِ دُونَ أَنْ يَنَالَ مِنْهُ الْمَوْتُ ؟ » وَأَعْتَقَدُ أَنَّ الْأَمْرَ فِي مِثْلِ تِلْكَ
الْحَالِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَا يَتَّصِفُ بِهِ الْمَلِكُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ .

الفصل السابع والعشرون أطلال مدينة حور

كَانَ مِنَ الْمُقَدَّرِ لِرَحْلَتِنَا أَلَّا تَسْتَقِرَّ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، لِيَا لَمْ نَحْمِلْ مَعَنَا سِوَى غِيَارٍ مِنَ الْمَلَابِيسِ ، وَبِنَادِقِنَا وَعِنْدَ الْغُرُوبِ تَوَجَّهْنَا إِلَى غُرْفَةِ عَائِشَةَ ، وَوَجَدْنَاهَا مُسْتَعِدَّةً لِلرَّحِيلِ . وَكَانَ ثَمَّةَ مِحْفَةٍ عِنْدَ مَدْخَلِ الْكَهْفِ وَسِتَّةَ رِجَالٍ وَبِلَالِي فِي أَنْتِظَارِ عَائِشَةَ .

وَكَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَقْطَعَ الرِّحْلَةَ سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ . وَلَمْ يَشْهَدْ رَحِيلَنَا أَحَدٌ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ ، فِي آخِثِقَادِي ، أَنَّ الْأَهْلِي تَلَقَّوْا أَمْرًا بِأَنْ يَتَّبِعُوا عَنْ الْمَكَانِ ، حَتَّى لَا يَعْرِفَ أَحَدٌ أَنَّ رَحْلَنَا .

بَدَأَتْ مَسِيرَتُنَا عَبْرَ السَّهْلِ الْوَاسِعِ الَّذِي كَانَ يَوْمًا مَا قَاعًا لِبُحَيْرَةٍ . وَبَعْدَ أَنْ سِيرْنَا قُرَابَةَ نِصْفِ السَّاعَةِ اقْتَرَبْنَا مِنْ أَطْلَالِ مَدِينَةِ حُورِ الْقَدِيمَةِ .

كَانَتْ الشَّمْسُ تَمِيلُ نَحْوَ الْمَغِيبِ عِنْدَ بُلُوغِنَا ذَلِكَ الْمَكَانِ . وَعَبَّرْنَا جِسْرًا هَائِلًا يُودِّي إِلَى الْمَدِينَةِ . وَأُتِيحَ لِي وَأَنَا أَنْعَبُ الْجِسْرَ أَنْ أَرَى تَحْتَهُ ، وَعَلَى امْتِدَادِ كِيلُومِثْرَاتٍ عَدِيدَةٍ ، أَطْلَالِ الْمَدِينَةِ . وَكَانَ مِنْ بَيْنِهَا قُصُورُ الْأَغْنِيَاءِ الْفَحْمَةِ ، وَبُيُوتُ الْفُقَرَاءِ الْمُتَوَاضِعَةِ ، وَالْحَدَائِقُ

الَّتِي اكْتَسَتْ أَرْضُهَا آلَانَ بِالْأَعْشَابِ ، وَالشُّوَارِعُ وَالْمِيَادِينُ ، وَكَانَتْ
أَسْقُفُ الْمَبَانِي كُلِّهَا مُتْدَاعِيَةً ، وَتَمَتْ وَسَطَ كُنَلِ الْحِجَارَةِ الْمُلَقَاةِ فِي
الشُّوَارِعِ أَشْجَارٌ وَحَشَائِشُ ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ فِي اسْتِطَاعَةِ الْمَرْءِ أَنْ يَرَى
فِي ضَوْءِ الْغُرُوبِ الضَّارِبِ إِلَى الْإِحْمِرَارِ ، مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْمَدِينَةُ ذَاتَ
يَوْمٍ .

كَانَ فِي وَسَطِ الْمَدِينَةِ مَبْنَى ضَخْمٌ لِلْغَايَةِ تُحِيطُ بِهِ عِدَّةُ سَاحَاتٍ ،
كُلُّ سَاحَةٍ دَاخِلُ الْأُخْرَى . وَكَانَ أَهْلُ خُورٍ يَتَعَبَّدُونَ فِي هَذَا الْمَبْنَى .

وَوَقَفَ خَدَمُ عَائِشَةَ أَمَامَ بَوَابِهِ هَذَا الْمَبْنَى ، فَقَالَتْ : « ثَمَّةَ مُوضِعٌ
يُمْكِنُنَا أَنْ نَقْضِيَ فِيهِ لَيْلَتَنَا . وَقَدْ جِئْتُ إِلَى هُنَا أَنَا وَكَالِيكَرَاتِسُ وَالْمَرْأَةُ
الْمِصْرِيَّةُ مُنْذُ أَلْفِي عَامٍ . وَلَعَلَّ الْبَيْتَ الَّذِي نَزَلْنَا بِهِ تَهْلَدَمُ مُنْذُ ذَلِكَ
الْحِينِ . »

وَصَعِدَتْ بِضَعِ دَرَجَاتٍ إِلَى السَّاحَةِ الْخَارِجِيَّةِ وَتَلَفَّتْ حَوْلَهَا ثُمَّ
قَالَتْ : « إِنَّهُ هُنَا . »

كَانَ ثَمَّةَ غُرْفَةٌ مَنَحُوْتَةٌ فِي الْجِدَارِ ، وَلَعَلَّهَا كَانَتْ يَوْمًا مَا مَسْكَنَ
حَارِسِ الْبَوَابَةِ . وَدَخَلْنَا ، وَتَنَاوَلْتُ مَعَ لَبُو وَجُوبَ غَدَاةَنَا ، عَلَى حِينِ
أَكَلَتْ عَائِشَةُ بَعْضَ الْفَاكِهَةِ .

قَالَتْ : « لَقَدْ جِئْتُ بِكُمْ إِلَى هُنَا لِتُشَاهِدُوا ضَوْءَ الْقَمَرِ يَسْطَعُ فَوْقَ
أُطْلَالِ خُورٍ . وَعِنْدَمَا تَسْتَعِدُّونَ سَنَخْرُجُ لِتُشَاهِدُوا هَذَا الْمَكَانَ ، وَلَتَرَى

مَعْبُودَ أَهْلِ خُورٍ . »

وَأَجْتَرْنَا سَاحَةً إِثْرَ سَاحَةٍ . وَكُنَّا نَتَهَامَسُ فِي ذَلِكَ الصَّمْتِ الْمُطْبِقِ ،
وَنَحْنُ نَسِيرُ فِي أَرْوَقَةٍ غَيْرِ مَسْقُوفَةٍ ، مَارِينَ بِنَوَافِدِ عَالِيَةٍ يَتَسَلَّلُ مِنْهَا
ضَوْءُ الْقَمَرِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَقْطَعُ ذَلِكَ الصَّمْتَ سِوَى وَقْعِ خُطَوَاتِنَا .
وَكَانَتْ ظِلَالُنَا الْمُنْعَكِسَةُ أَمَامَنَا تَتَحَرَّكُ بِهْدْوٍ غَيْرِ السَّاحَاتِ الْمَكْسُوءَةِ
بِالْأَعْشَابِ .

وَبَعْدَ لَحْظَةٍ قَالَتْ عَائِشَةُ : « هَلُمُّوا لِأَرِيكُمْ أُعْجَبَ الْعَجَائِبِ .
سَأَرِيكُمْ الْمَعْبُودَةَ الَّتِي كَانَ هَذَا الشَّعْبُ الْعَظِيمُ يَتَقَرَّبُ إِلَيْهَا . »

وَدَخَلْنَا السَّاحَةَ الدَّاخِلِيَّةَ ، وَكَانَتْ تَوَسَّطُهَا صَخْرَةٌ ضَخْمَةٌ مُرَبَّعَةٌ
الشَّكْلِ ، تَعْلُوهَا كُرَّةٌ صَخْرِيَّةٌ دَاكِئَةٌ قُطْرُهَا حَوَالِي سَبْعَةِ أُمْتَارٍ . وَكَانَ
يَنْتَصِبُ فَوْقَ الْكُرَّةِ تِمْنَالٌ مِنَ الْحَجَرِ الْأَبْيَضِ النَّقِيُّ لَامِرَّةٌ لَهَا جَنَاحَانِ
مُبْسِطَانِ . وَكَانَتْ ذِرَاعَاهَا مَمْدُودَتَيْنِ ، وَعَيْنَاهَا مُعْطَاَتَيْنِ بِنِقَابٍ .

سَأَلْتُ : « مَنْ تَكُونُ الْمَرْأَةُ ؟ »

أَجَابَتْنِي عَائِشَةُ : « أَلَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تُخَمِّنَ ؟ » ثُمَّ سَارَتْ أَمَامَنَا حَتَّى
وَصَلَتْ إِلَى أَسْفَلِ التَّمْنَالِ ، وَقَرَأَتْ الْكِتَابَةَ الْمَنَحُوْتَةَ فِي الصَّخْرَةِ :

« اِرْفَعْ النَّقَابَ وَأَنْظُرْ إِلَى « الْحَقِيقَةِ » وَجْهًا لِوَجْهِ . وَلَكِنْ
لَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ النَّقَابِ سِوَى الْمَوْتِ . »

وَقَالَتْ عَائِشَةُ : « لَقَدْ كَانَتْ « الْحَقِيقَةُ » مَعْبُودَةً شَعْبِ خُورٍ . »

الفصل الثامن والعشرون داخل جبل النار

أيقظنا الخدم في اليوم التالي قبل شروق الشمس ، فوجدنا عائشة تنتظرنا في الخارج متدثرة بعباءة سوداء . ولاحظت عليها بعض علامات الحزن أو القلق .

سألها ليو : « هل نعتيت بنوم هادئ ؟ »

أجابته : « كلا يا كاليكراتيس ؛ فقد آتتني أحلام مفرعة ، ولا أدري لها تفسيراً . ومع ذلك كيف يمكن أن يصيبني شر ؟ إنني أساءل : إذا أصابني شيء ، فهل ستذكرني بالخير ؟ »

ولم تنتظر عائشة لتسمع ردًا . وسرعان ما رحلنا تاركين وراءنا أطلال المدينة .

وتوقفنا في الظاهر لننال قسطاً من الراحة ، ولتتناول الغداء . وفي الساعة الثانية كنا قد بلغنا سفح جدار صخري ارتفاعه حوالي خمسمائة متر .

قالت عائشة : « يُطلق الأهالي على هذا المكان اسم جبل النار . ولم يجرؤ أحدًا قط على الاقتراب منه . ستترك الخدم هنا ، وأنت يا بلالي أبقى معهم . ويمكنك الانتظار تحت تلك الأشجار هناك . وسوف نعود إلى هنا غداً ظهراً . وإذا لم نعد في هذا الموعد فأبق في انتظارنا . أما هذا الرجل جوب ، فمن الأفضل له أن ينتظر هنا ، ما لم يكن على قدر كبير من الشجاعة ؛ لأن أسرار المكان الذي نقصده لا نحتمل عينا الشخص العادي أن ترياها . »

فقال جوب : « لا أعتقد أن ثمة ما هو أسوأ مما رأيته حتى الآن . ولا أود أن أبقى مع هؤلاء القوم الذين لا يستطيعون أن ينطقوا كلمة ، وقد يضعون قدراً فوق رأسي . إنني أفضل أن آتي معكم . »

أخبرت عائشة برد جوب ، فقالت : « حسن ، دعه يأت ، ولحميل اللوح . » وأشارت إلى لوح خشبي طوله حوالي خمسة أمتار مثبت في المحفة التي كانت تجلس عليها . وحمل ليو الماء والطعام ، وحملت أنا مصباحين ووعاء زيت لهما . أما بلالي والخدم فقد انصرفوا . واستدارت عائشة ونظرت إلى الهضبة ، فصيححت :

« يا إلهي ! هل سنتسلقها ؟ »

وتقدمنا عائشة تثب من صخرة إلى صخرة بحفة ورشاقة ثيران الدهشة ؛ وكان علينا بطبيعة الحال أن نتبعها ، ونساعد جوب على

حَمَلِ اللَّوْحَ الْحَشِيَّ .

وَسَرَّعَانَ مَا يَلْعَنُ حَافَةَ صَخْرَةٍ ضَيِّقَةٍ ، أَخَذَتْ تَزْدَادُ اتِّسَاعًا ، وَيَزْدَادُ
خُذُّهَا الْخَارِجِيُّ ارْتِفَاعًا ، فَوَجَدْنَا أَنْفُسَنَا نَمْشِي فِي مَمَرٍ بَيْنَ جِدَارَيْنِ
صَخْرِيَّيْنِ . وَفَجَاةً أَنْتَهَى بِنَا الْمَمَرُ إِلَى كَهْفٍ فِي الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ .
وَكَانَ كَهْفًا طَبِيعِيًّا تَكُونُ يَفْعَلُ انْفِجَارُ غَارِي .

أَمَرْتَنِي عَائِشَةُ بِأَنْ أَشْعَلَ الْمِصْبَاحَيْنِ ، وَأَنْ أُعْطِيَهَا وَاحِدًا . وَمَشَتْ
أَمَامَنَا فِي الْكَهْفِ ، وَكَانَتْ تَتَلَمَّسُ مَوَاضِعَ خُطَاهَا يَحْذِرُ بِالْغَرِّ وَسَطَ
حِجَارَةٍ ضَخْمَةٍ وَحُفْرٍ يُمَكِّنُ أَنْ تَتَسَبَّبَ فِي كَسْرِ سَاقٍ مَنْ يَمْشِي بِغَيْرِ
حَذَرٍ .

سِرْنَا فِي هَذَا الطَّرِيقِ قُرَابَةَ عِشْرِينَ دَقِيقَةً وَتَوَقَّفْنَا . وَبَيْنَمَا كُنْتُ
أَتَلَمَّسُ طَرِيقِي فِي الظُّلَامِ هَبَّتْ رِيحٌ قَوِيَّةٌ أَطْفَأَتِ الْمِصْبَاحَيْنِ .

نَادَيْنَا عَائِشَةَ ، فَتَقَدَّمْنَا نَتَحَسَّسُ طَرِيقَنَا . وَأَبْصَرْنَا أَمَامَنَا شَقًّا هَائِلًا
فِي الصَّخْرَةِ الَّتِي كَانَ يُبْرِهَا ضَوْءُ النَّهَارِ الْخَافِتِ الْمُتَسَلِّلِ مِنْ فَوْقِ .
وَكَانَتْ تُحِيطُ بِالصَّخْرَةِ هُوَّةٌ سَحِيقَةٌ شَدِيدَةُ الظُّلَامِ . وَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ
تَتَبَّنَ نِهَآيَةَ الشَّقِّ ، إِلَّا أَنَّ الصَّخْرَةَ الَّتِي كُنَّا نَقِفُ عَلَيْهَا كَانَتْ تَمْتَدُّ
أَمَامَنَا وَتَزْدَادُ ضَيِّقًا حَتَّى أَصْبَحَ طَرْفُهَا مُدْبِيًّا مِثْلَ قَلَمِ الرَّصَاصِ .

قَالَتْ عَائِشَةُ : « إِحْرِسُوا عَلَى الْأَنْظُرُوا تَحْتَكُمُ » ، وَإِلَّا قَذَفَتْ بِكُمْ
الرَّيْحُ فِي تِلْكَ الْهُوَّةِ الَّتِي لَا قَرَارَ لَهَا . »

أَخَذْتُ تَتَجَهَّ نَحْوَ الطَّرْفِ الْمُدْبِبِ وَنَحْنُ نَتَّبِعُهَا : كُنْتُ أَنَا فِي
الْمُقَدِّمَةِ ، وَتَبْعَنِي جُوبٌ يَجْرُ وَرَاءَهُ اللَّوْحُ الْحَشِيَّ ، وَسَارَ بَعْدَهُ لُيُو .
وَتَبَّيَّنَ لِي ، بَعْدَ أَنْ سِرْتُ بِضَعِ خُطَوَاتِ ، أَنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ أَمْشِيَ
عَلَى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ ؛ وَسَرَّعَانَ مَا فَعَلَ مِثْلِي زَمِيلَايَ . وَكَانَ لُيُو يُسَاعِدُ



جُوب فِي جَرِّ اللَّوْحِ ، عَلَى حِينٍ وَقَفَتْ عَائِشَةُ تَدْفَعُ بِصَدْرِهَا نَحْوَ
الرَّيْحِ ، وَبَدَتْ لَا تَخْشَى شَيْئًا .

سِرْنَا نَحْوَ عِشْرِينَ مِثْرًا فَوْقَ هَذَا الْجِسْرِ الرَّهيبِ ، وَفَجْأَةً هَبَّتْ
رِيحٌ عاصِفَةٌ ، وَانْدَفَعَتْ فِي الْكَهْفِ . وَرَأَيْتُ عَائِشَةَ تَقِفُ ثَابِتَةً فِي
مُوجْهِتِهَا . إِلَّا أَنَّ الرِّيحَ انْتَشَرَتْ تَحْتَ عِبَائِهَا وَانْتَرَعَتْهَا مِنْ عَلَيْهَا ،
وَطَارَتْ فِي الْهَوَاءِ مِثْلَ طَائِرٍ ضَخْمٍ عاجِزٍ . وَتَشَبَّثَتْ بِالصَّخْرَةِ ، وَقَدْ
بَدَتْ لِي تَهْتَرُ تَحْتِي . وَرَكَعْنَا كُلُّنَا عَلَى الصَّخْرَةِ ، مُعْلِقِينَ بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ ، لَا شَيْءَ تَحْتَنَا سِوَى فَرَاغٍ ، عَلَى حِينٍ انْدَفَعَتْ الرِّيحُ فَوْقَنَا
تَسُوقُ أَمَامَهَا سُحْبًا مِنَ الْبُخَارِ . إِنَّ هَذَا الْمَشْهَدَ يُرَاوِدُنِي ، حَتَّى الْآنَ ،
فِي أَحْلَامِي فَأَهْبُ مِنْ نَوْمِي مَدْعُورًا .

وَلَهَضَتْ عَائِشَةُ ، وَبَدَتْ أَمَامَنَا مِثْلَ شَجَرٍ أَيْضَ ، وَصَاحَتْ :
« تَقَدَّمُوا ! تَقَدَّمُوا ! تَقَدَّمُوا حَتَّى لَا تَسْقُطُوا فَتَتَبَعَنَّا أَشْلَاؤُكُمْ . ثَبَّتُوا
أَعْيُنَكُمْ عَلَى أَرْضِيَّةِ الصَّخْرَةِ ، وَتَشَبَّثُوا بِهَا بِقُوَّةٍ . »

الفصل التاسع والعشرون الحجر المتأرجح

سِرْنَا مَسَافَةً لَا أَذْرِي مِقْدَارَهَا حَتَّى وَصَلْنَا أَقْصَى طَرَفِ الصَّخْرَةِ .
وَهُنَاكَ رَقَدْنَا وَتَشَبَّثْنَا بِالأَرْضِ بِأَصَابِعِنَا ، عَلَى حِينٍ وَقَفَتْ عَائِشَةُ
وَشَعْرُهَا يَتَطَايَرُ فِي الْهَوَاءِ . وَأَذْرَكْتُ آنَذَاكَ لِمَاذَا أُخْضَرْنَا مَعَنَا اللَّوْحُ
الْحَشِيبِيُّ : كَانَتْ ثَمَّةٌ فَجْوةٌ أَمَامَنَا ، وَعَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ شَيْءٌ لَمْ أَتَبَيَّنْ
كُنْهَهُ .

قَالَتْ عَائِشَةُ : « عَلَيْنَا أَنْ نَنْتَظِرَ ؛ فَسَرَّعَانَ مَا سَيَسْطَعُ النُّورُ . » وَلَمْ
أَسْتَطِعْ أَنْ أَذْرِكَ قَصْدَهَا ، فَرَحْتُ أَفْكَرُ : كَيْفَ يَسْطَعُ نُورٌ فِي مِثْلِ
هَذَا الْمَكَانِ الْمُظْلَمِ تَحْتَ الأَرْضِ ؟! وَفَجْأَةً وَمَضَ شُعَاعٌ مِنَ الشَّمْسِ
الْغَارِبَةِ مِثْلَ سَيْفٍ نَارِيٍّ ، وَشَقَّ الظَّلَامَ نَحْوَ طَرَفِ الصَّخْرَةِ ؛ وَإِذَا
بِالنُّورِ يُحِيطُ بِعَائِشَةَ ، فَوَقَفَتْ فِي رُوعَةٍ وَبَهَاءٍ يَتَالَقُ عَلَيْهَا النُّورُ
الْمُشْرَبُ بِصَفَرَةِ الذَّهَبِ وَحُمْرَةِ الدَّمِ .

مِنْ أَجْلِ شُعَاعِ النُّورِ هَذَا كَانَ أَنْتَظَرُ عَائِشَةَ ، وَقَدْ رَتَبْتُ وَصُولَنَا

بَحَيْثُ يَجِيءُ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لَهُ . وَرَأَيْتُ عَلَى بُعْدِ حَوَالِي ثَلَاثَةَ
أُمْتَارٍ وَنِصْفِ الْمِثْرِ مِنْ حَافَةِ الصَّخْرَةِ ، وَعَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ ، حَجَرًا
ضَخْمًا يَبْضُوئِي الشَّكْلَ ، تَرَاوَحَ طَوْلُهُ بَيْنَ سِتَّةِ أُمْتَارٍ وَتِسْعَةٍ . وَكَانَ
مُرْتَكِّزًا عَلَى مِسْلَةٍ صَخْرِيَّةٍ تَرْتَفِعُ وَسَطَ الظَّلَامِ ، وَرَأَيْتُ الْحَجَرَ
يَتَأَرَّجِحُ ذَهَابًا وَإِيَابًا كُلَّمَا هَبَّتِ الرِّيحُ ، حَتَّى إِنَّنِي خَشِيتُ أَنْ يَشْتَدَّ
هُبُوبُ الرِّيحِ مَرَّةً فَتَطْوَحَهُ .

صَاحَتْ عَائِشَةُ : « اسْرِعُوا بِإِحْضَارِ اللَّوْحِ الْخَشَبِيِّ ؛ إِذْ عَلَيْنَا أَنْ
نَعْبُرَ أَثْنَاءَ سُطُوعِ النَّوْرِ . »

قَالَ جُوبَ وَهُوَ يَدْفَعُ اللَّوْحَ الْخَشَبِيَّ إِلَى الْأَمَامِ : « يَا إِلَهِي ! هَلْ
تُرِيدُنَا حَقًّا أَنْ نَعْبُرَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ فَوْقَ هَذَا اللَّوْحِ ؟ ! »

وَمَدَّتْ عَائِشَةُ اللَّوْحَ حَتَّى اسْتَقَرَّ طَرَفُهُ فَوْقَ الْحَجَرِ الْبَيْضَوِيِّ
الشَّكْلِ ، وَاسْتَقَرَّ الطَّرْفُ الْآخَرُ فَوْقَ حَافَةِ الصَّخْرَةِ . وَقَالَتْ :

« إِنَّ هَذَا الْحَجَرَ لَيْسَ ثَابِتًا كَمَا كَانَ مِنْذُ أَنْ جِئْتُ إِلَى هُنَا آخِرَ
مَرَّةٍ ؛ لِذَا فَإِنَّنِي لَسْتُ وَاثِقَةً بِأَنَّهُ سَيَتَحَمَّلُ ثِقَلَنَا . وَعَلَيْهِ سَأَعْبُرُ أَنَا
أَوَّلًا . »

وَجَرَتْ بِخَفَةِ فَوْقَ الْمَعْبَرِ ، وَقَالَتْ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ : « إِنَّهُ آمِنٌ ،
وَسَوْفَ أَقِفُ فِي أَقْصَى حَافَةِ الْحَجَرِ حَتَّى لَا يَتَرَحَّزَ مِنْ جَرَاءِ ثِقَلِكُمْ .
وَالآنَ تَقَدَّمْ يَا هُولِي ؛ فَسَرَّعَانِ مَا سَيَحْبُو النَّوْرُ . »



إِرْتَكَزْتُ عَلَى رُكْبَتَيَّ وَيَدَيَّ ، فَقَالَتْ : « لَا أُعْتَقِدُ أَنَّكَ خَائِفٌ ،
وَلَا فَافْسِيحَ مَكَانًا لِكَالِكِرَاتِس . »

قُلْتُ لِنَفْسِي : « أَفْضَلُ لِي أَنْ أُسْقَطَ مِنْ هُنَا عَنْ أَنْ تَهْزَأَ بِي
عَائِشَةُ . »

وَشَعَرْتُ بِاللُّوْحِ الْخَشْبِيِّ يَمِيدُ نَحْتِي مِنْ وَطْأَةِ وَرْثِي . وَلَمَّا كُنْتُ
بِطَبْعِي أَكْرَهُ الْأَمَاكِينَ الْمُرْتَفِعَةَ ، فَقَدْ شَعَرْتُ بِأَنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَظْلَمَتْ أَمَامَ
عَيْنَيَّ ، وَصَارَ جَسَدِي بَارِدًا ، وَفَقَدْتُ السَّيْطَرَةَ عَلَى يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ .
وَوَجَدْتُ نَفْسِي فِي النَّهَايَةِ رَاقِدًا عَلَى الْحَجَرِ الَّذِي كَانَ يَتَأَرَّجِحُ نَحْتِي
مِثْلَ زُورْقٍ فِي بَحْرِ هَائِجٍ .

إِنْدَفَعَ لِيُو وَعَبَّرَ فَوْقَ اللَّوْحِ الْخَشْبِيِّ جَرِيًّا ، وَكَانَ يَبْدُو مِثْلَ أَحَدِ
لَاعِبِي السَّيْرِكِ الَّذِينَ يَسِيرُونَ فَوْقَ الْجِبَالِ . وَمَدَّتْ عَائِشَةُ لَهُ يَدَهَا
قَائِلَةً : « يَا لَكَ مِنْ شَجَاعٍ ! »

وَكَانَ جُوبٌ رَاكِعًا فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ عَلَى رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ . قَالَ :
« لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أُعْبِرَ ! »

صَحَّتْ بِهِ : « أَقْدِمْ يَا جُوبُ ! إِذَا بَقِيتَ مَكَانَكَ لَقِيتَ حَتْفَكَ ؛
فَالنُّورُ يَضْمَحِلُّ . »

قَالَ لِيُو : « أَقْدِمْ يَا جُوبُ ، إِنَّ الْأَمْرَ فِي غَايَةِ السُّهُولَةِ . »

تَقَدَّمَ جُوبٌ بِيَدَيْهِ ، عَلَى حِينِ تَدَلَّتْ سَاقَاهُ عَلَى جَانِبِي اللَّوْحِ
الْخَشْبِيِّ . وَعِنْدَمَا بَلَغَ مُنْتَصَفَهُ اخْتَفَى النُّورُ .

صَحَّتْ بِهِ : « أَقْدِمْ يَا جُوبُ . » وَأَزْدَادَ تَأَرَّجِحُ الْحَجَرِ الَّذِي كُنْتُ
رَاقِدًا فَوْقَهُ ، حَتَّى أَصْبَحَ مِنَ الْمُتَعَذِّرِ أَنْ أَتَشَبَّثَ بِهِ .

صَرَخَ جُوبُ الْمُسْكِينُ وَسَطَ الظُّلَامِ : « فَلْيَرْحَمْنِي اللَّهُ ! إِنَّ اللَّوْحَ
الْخَشْبِيَّ يَنْزِلُ ! »

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمَسْتُ يَدَهُ يَدِي فِي الظُّلَامِ ، فَجَذَبْتُهُ بِكُلِّ قُوَّتِي ؛
وَأَصْبَحَ جُوبٌ بِجَوَارِي فَوْقَ الْحَجَرِ .

وَفِي اللَّحْظَةِ نَفْسَهَا سَمِعْتُ صَوْتَ سُقُوطِ اللَّوْحِ وَارْتِطَامِهِ بِجَوَانِبِ
الصَّخْرَةِ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى أَسْفَلِ .

تَسَاءَلْتُ : « كَيْفَ سَنَعُودُ ؟ »

أَجَابَنِي لِيُو وَسَطَ الظُّلَامِ : « لَا أَعْرِفُ ؛ وَأُحْمَدُ اللَّهَ — عَلَى كُلِّ
حَالٍ — أَنَّنَا هُنَا مَعًا . »

الفصل الثلاثون نار الحياة

سَأَلْتَنِي عَائِشَةُ أَنْ أُمْسِكَ يَدَهَا . وَشَعَرْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهَا تُوجِّهُنِي فِي سَبِيلِي إِلَى أَمْتِدَادِ حَافَةِ الْحَجَرِ . وَبَعْدَ أَنْ تَقَدَّمْتُ قَلِيلًا شَعَرْتُ بِفَرَاغٍ تَحْتَ قَدَمَيَّ ، وَسَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقُولُ لِي : « أَتْرُكُ نَفْسَكَ تَهْوِي . »

لَمْ يُرْقِنِي أَنْ أَهْوِي ، وَلَكِنْ قَدَمَيَّ اصْطَدَمَتَا بِسَطْحِ صَخْرِي . وَكُنْتُ أَسْمَعُ الرِّيحَ تُعْصِفُ فَوْقِي ، وَسَرْعَانَ مَا وَجَدْتُ نَفْسِي فِي مَوْضِعٍ ، الْهَوَاءُ فِيهِ سَاكِنٌ ، فَحَمَدْتُ اللَّهَ . وَسَرْعَانَ مَا وَجَدْتُ لِيُوْ بِجَوَارِي ، وَجَاءَ بَعْدَهُ جُوبٌ .

قَالَتْ عَائِشَةُ : « أَشْعِلُوا الْمِصْبَاحِينَ . »

وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّنَا فِي كَهْفٍ صَغِيرٍ لَا يَزِيدُ عَرْضُهُ عَلَى مِثْرٍ وَنِصْفِ الْمِثْرِ ؛ وَكَانَ سَقْفُهُ هُوَ الْحَجَرُ الْمُتَارِجِحُ . وَرَأَيْتُ لِيُوْ جَالِسًا عَلَى الْأَرْضِ ، وَجُوبٌ جَالِسًا بِجَوَارِهِ مَدْعُورًا ، أَمَّا عَائِشَةُ فَكَانَتْ تَقِفُ بِهْدُوءٍ فِي أَنْتِظَارٍ أَنْ يَتَأَلَّقَ الْمِصْبَاحَانِ .

قَالَتْ : « يُمَكِّنُكُمْ الْآنَ أَنْ تَنَالُوا قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ فِي هَذَا الْمَكَانِ ، الَّذِي كَانَ يَوْمًا مَا بَيَّتَ حَكِيمٌ يُدْعَى نُوتَ ، عَاشَ هُنَا وَحْدَهُ ، وَكَانَ عَالِمًا بِأَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ ، وَقَدْ اكْتَشَفَ نَارَ الْحَيَاةِ الَّتِي سَارِبًا لَكُمْ . إِنْ عِظَامُ هَذَا الْحَكِيمِ تَرَقَّدَ هُنَا . وَقَدْ رَفَضَ أَنْ يَدْخُلَ نَارَ الْحَيَاةِ ، لِأَنَّهُ قَالَ : ' يُوْلَدُ الْإِنْسَانُ لِيَمُوتَ ' . وَقَدْ جِئْتُ إِلَى هَذِهِ الْبَلَدَةِ مِنْ وَقْتٍ لَيْسَ بِالْبَعِيدِ ، وَأَسَرَّ إِلَيَّ بِسِرِّ نَارِ الْحَيَاةِ . وَلَقِيتُ كَالِيكَرَاتِسَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَأَخْبَيْتُهُ ، وَعَزَمْتُ عَلَى أَنْ آتِي مَعَهُ إِلَى هُنَا لِنَنَالَ نِعْمَةَ الْحَيَاةِ الْخَالِدَةِ . وَعِنْدَمَا أَتَيْنَا رَأَيْتُ الْعَجُوزَ نُوتَ رَاقِدًا وَقَدْ فَارَقَتْهُ الْحَيَاةُ . »

وَضَعْتُ يَدَيَّ عَلَى الْأَرْضِ ، فَلَمَسْتُ أَصَابِعِي شَيْئًا تَبَيَّنْتُ أَنَّهُ ضِرْسٌ أَدْمِي ؛ وَرَأَيْتُ عَنْ شِمَالِي جُمُجُمَةً مُلْقَاةً .

قَالَتْ عَائِشَةُ : « نَعَمْ ، هَذَا هُوَ كُلُّ مَا تَبَقِيَ مِنْ حِكْمَةِ نُوتَ . وَعِنْدَمَا رَفَضْتُ ، يَا كَالِيكَرَاتِسَ ، أَنْ تَتَّبِعَنِي إِلَى دَاخِلِ نَارِ الْحَيَاةِ ، تَنَاوَلْتُ الرُّمَحَ الَّذِي كُنْتُ تَحْمِلُهُ وَقَتَلْتُكَ بِهِ . وَأَخَذْتُ أَبْكَي ، لِأَنَّنِي أَصْبَحْتُ خَالِدَةً لَا يَنَالُ مِنِّي الْمَوْتُ ، عَلَى حِينٍ كُنْتُ أَنْتَ مَيِّتًا . هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ ، وَلَمْ أَخْفِ عَنْكَ شَيْئًا . وَالْآنَ قُلْ لِي إِنَّكَ قَدْ غَفَرْتَ لِي فَعَلْتِي هَذِهِ ، وَقَتْلِي تِلْكَ الْفَتَاةَ أَوْسْتَانَ ، الَّتِي أَحْبَبْتُكَ ، لِأَنَّهَا عَصَتْ أَوَامِرِي . »

وَاصَلَّتْ عَائِشَةُ حَدِيثَهَا بِصَوْتِ هَامِسٍ تُشَوِّبُهُ رِقَّةٌ بِالْعَةِ ، فَقَالَتْ :

« اِرْفَعْ عَنْ وَجْهِي التَّقَابَ دُونَ أَنْ يَتَنَابَكَ أَذْنِي شَعُورِي بِالْخَوْفِ ،
وَكَأَنِّي فِتَاةٌ رِفِيفَةٌ ، وَلَسْتُ أَكْثَرَ نِسَاءِ الْعَالَمِ حِكْمَةً وَجَمَالًا . »

ثَاثِرُ لَيْوٍ بِشِدَّةٍ ، وَزَالَ عَنْهُ سِحْرُ الْمَلِكَةِ الْغَرِيبَةِ ؛ وَكَانَ حَتَّى تِلْكَ
الْلَحْظَةَ وَقَعًا تَحْتَ سَيْطَرَتِهَا مِثْلَ طَائِرٍ وَقَعَ تَحْتَ سَيْطَرَةِ نَظَرَاتِ
تُغْبَانٍ ؛ وَلَكِنَّ الْحَالَ تَغَيَّرَ ، وَأَذْرَكَ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ يُحِبُّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ
الْرائِعَةَ وَالْفَانِنَةَ . وَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ مُعْرُورَتَيْنِ بِالْدمُوعِ . وَتَنَاوَلَ يَدَهَا ،
وَأَزَاحَ التَّقَابَ عَنْ وَجْهِهَا ، وَنَظَرَ إِلَى عَيْنَيْهَا الْغَامِضَتَيْنِ قَائِلًا : « إِنِّي
أُحِبُّكَ يَا عَائِشَةُ ، وَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ مَا فَعَلْتَهُ . »

وَرَكَعَتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا ، وَأَمْسَكَتْ يَدَهُ وَضَمَّتْهَا إِلَيْهَا قَائِلَةً :
« اَعِذْكَ ، فِي أَوَّلِ سَاعَاتِ حُبِّنا وَأَجْمَلِهَا ، أَنْ أَتَحَلَّى عَنِ الشَّرِّ ، وَأَنْ
أُسْعَى إِلَى كُلِّ مَا هُوَ خَيْرٌ . سَوْفَ يَهْدِينِي صَوْتُكَ إِلَى طَرِيقِ الْوَاجِبِ .
لَنْ أُسْعَى وَرَاءَ مَجْدٍ ، وَلَكِنِّي سَأَعْمَلُ فَقَطْ عَلَى أَنْ أُحِبُّكَ وَأَزْعَاكَ أَنْتِ
يَا مَنْ عُدْتُ لِي أَخِيرًا . »

وَنَهَضَتْ وَتَنَاوَلَتْ مِصْبَاحًا ، وَسِيرْنَا صَوْبَ آخِرِ الْكَهْفِ . وَرَأَيْنَا
هُنَاكَ سُلَمًا لَمْ يَصْنَعْهُ إِنْسَانٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ مَجْمُوعَةً مِنَ الصُّخُورِ
مَرصُوصَةً بِشَكْلِ جَعَلَهَا تَبْدُو مِثْلَ دَرَجٍ بُدَائِيٍّ ، وَكَانَ يُفْضِي إِلَى مَعْرٍ
شَدِيدِ الْإِنْجِدَارِ . وَسِيرْنَا فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ السَّاعَةِ ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى
مَكَانٍ بِالْغِ الْضَبِيقِ لِلدَّرَجَةِ أَنَّنَا اضْطَرَرْنَا إِلَى أَنْ نُسِيرَ فِيهِ الْوَاحِدَ إِثْرَ

الْآخِرِ . وَأَدَّى بِنَا فِي النِّهَائَةِ إِلَى كَهْفٍ بِالْغِ الْآتِسَاعِ لِلدَّرَجَةِ أَنَّنَا لَمْ
نَسْتَطِيعْ أَنْ نَرَى سَقْفَهُ أَوْ جُدْرَانَهُ . وَالشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي جَعَلْنَا نُدْرِكُ
أَنَّهُ كَهْفٌ هُوَ صَدَى وَقَعَ خُطَوَاتِنَا ، وَالْهَوَاءُ السَّاكِنُ ثَمَامًا .

وَاصَلْنَا سِيرَنَا صَامِتِينَ تَتَقَدَّمُنَا عَائِشَةُ تَقُودُ خُطَوَاتِنَا . وَبَلَّغْنَا كَهْفًا
أَصْغَرَ مِنَ الْكَهْفِ الْأَوَّلِ ، وَيَنْتَهِي بِمَرٍّ يَوْمِضٌ فِيهِ نُورٌ خَافِتٌ .

أَبَدْتُ عَائِشَةُ اسْتِحْسَانَهَا لِهَذَا الْمَشْهَدِ ، وَجَدْتُ فِي سِيرِهَا . وَأُخِذَ
النُّورُ يَشْتَدُّ ثُمَّ يَخْبُو ، وَيَعُودُ يَشْتَدُّ ثُمَّ يَخْبُو مِثْلَ أَشِعَّةِ نُورِ الْمَنَارِ الَّتِي
تَشُقُّ الظُّلَامَ فِي الْبَحْرِ لِتَهْدِيَ السُّفُنَ . وَكَانَ يُصَاحِبُ كُلَّ وَمُضَةٍ
شُعَاعٌ صَوْتٌ غَمِيقٌ كَصَوْتِ آرْتِطَامِ الْأَمْوَاجِ الصَّاخِبَةِ بِالصُّخُورِ .
وَأَنْعَطَفَ بِنَا الْمَرُّ لِنَرَى عَجَبًا .

رَأَيْنَا كَهْفًا ثَالِثًا طَوْلُهُ حَوَالِي خَمْسَةِ عَشَرَ مِثْرًا ، وَعَرْضُهُ حَوَالِي
عَشْرَةِ أَمْثَارٍ ، وَتُعْطِي أَرْضِيَّتَهُ رِمَالٌ بَيْضَاءُ . وَلَمْ يَكُنِ الْكَهْفُ مُظْلِمًا
مِثْلَ الْكَهْفَيْنِ الْآخَرَيْنِ ، بَلْ كَانَ يَغْمُرُهُ ضَوْءٌ هَادِئٌ وَرَدِيٌّ . وَبَيْنَمَا
كُنَّا نَتَأَمَّلُهُ وَنَتَسَاءَلُ عَنْ مَصْدَرِ الضَّوِّ ، حَدَثَ شَيْءٌ رَهيبٌ وَجَمِيلٌ
فِي نَفْسِ الْوَقْتِ . فَقَدْ ظَهَرَ فِي نِهَايَةِ الْكَهْفِ جِدَارٌ هَائِلٌ مِنْ نِيرَانِ ذَاتِ
الْوَانِ عَدِيدَةٍ وَبَرِيقٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ ، وَصَاحِبَ ظُهُورِهَا أَجِيجٌ شَدِيدٌ كَأَنَّ
يَهْرُ الْأَرْضِ . وَظَلَّتِ النَّيْرَانُ سَاطِعَةً حَوَالِي نِصْفِ دَقِيقَةٍ أَهْتَرَّ مَعَهَا
الْكَهْفُ ، ثُمَّ حَبَّتْ تَارِكَةُ الضَّوِّ الْوَرْدِيَّ الَّذِي رَأَيْنَاهُ أَوَّلًا .

عَلَيْكَ يَا كَالِيكَرَاتِس ، عِنْدَمَا تَعُودُ النَّيْرَانُ مَرَّةً أُخْرَى أَنْ تَقِفَ
وَسَطَهَا . »

رَدُّ لِيُو قَائِلًا : « إِنِّي مُصْنَعُ إِلَيْكَ يَا عَائِشَةُ . وَلَكِنْ أَلَنْ تَقْضِي
عَلَيَّ النَّيْرَانُ ، فَأَهْلَكَ وَتَهْلِكِي أَنْتِ أَيْضًا ؟ وَمَعَ ذَلِكَ سَأَفْعَلُ
مَا تُرِيدِينَ . »

اسْتَعْرَقَتْ عَائِشَةُ فِي التَّفَكِيرِ لَحْظَةً ، ثُمَّ قَالَتْ : « لَا يُدْهَشُنِي أَنْ
أَرَكَ خَائِفًا ، وَلَكِنْ هَبْ أَتُكِّنُ رَأْيِي أَقِفْ وَسَطَ النَّيْرَانِ ثُمَّ أَخْرُجْ مِنْهَا
سَالِمَةً ، فَهَلْ تَدْخُلُهَا أَنْتِ أَيْضًا ؟ سَوْفَ أَعْتَاسِلُ فِي حَمَامِ الْحَيَاةِ هَذَا
مَرَّةً أُخْرَى . إِنَّهُ لَنْ يُطِيلَ مِنْ أَيَّامِ عُمْرِي ، وَلَنْ يَزِيدَ مِنْ جَمَالِي ؛
وَلَكِنْ لِأَنِّي عِنْدَمَا دَخَلْتُ النَّيْرَانِ أَوَّلَ مَرَّةٍ كَانَ قَلْبِي مَلِيئًا بِالْكَرَاهِيَةِ
لِلْمَرْأَةِ الْمِصْرِيَّةِ أَمِينَارَاتِس . أَمَّا الْآنَ فَالْأَمْرُ مُخْتَلِفٌ ؛ فَقَلْبِي مَلِيءٌ
بِالسَّعَادَةِ وَالْحُبِّ . وَلَعَلَّ النَّيْرَانِ تَغْسِلُنِي وَتُطَهِّرُنِي وَتُنْقِيَنِي وَتَجْعَلُنِي
أَكْثَرَ صِلَاحِيَّةً لَكَ . »

وَسَمِعْنَا أَجِيحَ النَّيْرَانِ الْعَائِدَةِ مِنْ بَعِيدٍ فَصَاحَتْ : « اسْتَعِدَّ !
اسْتَعِدَّ ! »



صَاحَتْ عَائِشَةُ : « اقْتَرِبُوا ! هَذَا هُوَ قَلْبُ الْحَيَاةِ عِنْدَمَا يَدُقُ فِي
صَدْرِ الْعَالَمِ . »

وَتَبِعْنَاهَا عَبْرَ الضَّوِّ الْوَرْدِيِّ حَتَّى وَقَفْنَا قَبْلَ الْمَوْضِعِ حَيْثُ دَقَّ
قَلْبُ الْعَالَمِ الْعَظِيمِ ، وَحَيْثُ مَرَّ جِدَارُ النَّيْرَانِ . وَعِنْدَمَا سِرْنَا شَعَرْنَا
بِقُوَّةِ عَائِشَةِ وَرَائِعَةِ تَعْمُرْنَا ، وَبِإِحْسَاسِ بِقُدْرَتِنَا عَلَى أَنْ نَعْمَلَ وَنُجَابِةِ
كُلِّ شَيْءٍ ، وَبِأَنْ فِي دَاخِلِنَا قَرَحًا أَسْمَى وَنُفُوسًا أَهْلًا مِمَّا كُنَّا نَعْرِفُ
مِنْ قَبْلُ .

وَعَادَ أَجِيحُ النَّيْرَانِ ، وَأَخَذَ يَدُورُ كَعَاصِفَةٍ . ثُمَّ انْدَلَعَتِ النَّيْرَانُ ذَاتُ
الْأَلْوَانِ الْعَدِيدَةِ ، فَخَرَرْنَا أَمَامَهَا عَلَى رُكْبِنَا وَأَخْفَيْنَا وُجُوهَنَا ، عَلَى حِينِ
وَقَفَتْ عَائِشَةُ مَادَّةَ ذِرَاعَيْهَا نَحْوَ الضَّوِّ . وَقَالَتْ بَعْدَ خُفْوَتِهِ : « يَنْبَغِي

إِنِّي لَمْ أَرِ فِي حَيَاتِي مِثْلَ هَذَا الْجَمَالِ .

وَفَجْأَةً طَرَأَ تَغْيِيرٌ عَلَى وَجْهِ عَائِشَةَ ؛ إِذْ اخْتَفَتْ الْإِتِسَامَةُ مِنْ عَلَى
شَفَتَيْهَا ، وَحُلَّ مَحَلُّهَا تَغْيِيرٌ جَافٌ قَاسِرٌ . وَأَرْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهَا
الْمُسْتَدِيرِ عِلَامَاتُ حِدَّةٍ وَقَلَقٍ ، وَفَقَدَتْ عَيْنَاهَا بَرِيقَهُمَا ، وَبَدَتْ قَامَتُهَا
أَقْلَّ اتِّصَابًا .

الفصل الحادي والثلاثون

عائشة وسط النيران

أَزَاحَتْ عَائِشَةُ النِّقَابَ عَنْ وَجْهِهَا فَتَطَايَرَ شَعْرُهَا ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي
أَزْدَادَ فِيهِ أُجِيجُ النَّيِّرَانِ اقْتِرَابًا . وَأَحَاطَتْ رَقَبَةُ لَيْوٍ بِذِرَاعِهَا هَامِسَةً :
« ثَرَى أُنْعِمْ يَا عَزِيزِي كَمْ أُحِبُّكَ ؟ »

كَانَ أُجِيجُ النَّيِّرَانِ أَشْبَهَ بِرِيحٍ عَاصِفَةٍ تَحْتَرِقُ غَابَةَ وَتُطَوِّحُ
بِأَشْجَارِهَا . وَأَخَذَ هَذَا الْأُجِيجُ يَزْدَادُ اقْتِرَابًا ، وَأَنْطَلَقَتْ أَلْسِنَةُ النَّيِّرَانِ
فِي الْجَوِّ الْوَرْدِيِّ اللَّوْنِ ، ثُمَّ ظَهَرَتْ حَافَةُ النَّيِّرَانِ ، فَالْتَفَتَتْ عَائِشَةُ
نَحْوَهَا . وَاسْتَمَرَّ تَقْدُّمُ النَّيِّرَانِ ، حَتَّى أَحَاطَتْ بِعَائِشَةَ وَغَطَّتْهَا تَمَامًا .
وَبَدَتْ عَائِشَةُ وَكَأَنَّهَا تُعْتَرِفُ مِنْهَا بِيَدَيْهَا وَتَسْكُبُهَا فَوْقَ رَأْسِهَا كَمَا
تُسْكَبُ الْمَاءُ . وَرَأَيْتُهَا تَفْتَحُ فَمَهَا وَتَسْتَنْشِقُهَا ، ثُمَّ وَقَفَتْ سَاكِئَةً مَادَّةً
ذِرَاعَيْهَا وَكَأَنَّهَا رَوْحُ النَّيِّرَانِ . وَأَخَذَتِ النَّيِّرَانُ تَتَلَاعَبُ فَوْقَ شَعْرِهَا ،
وَتَتَرَاقَصُ حَوْلَ رَقَبَتِهَا ، وَبَدَتْ وَكَأَنَّهَا وَجَدَتْ مُسْتَقَرًّا لَهَا فِي عَيْنَيْهَا .

« مَا هَذَا يَا كَالِيكَرَاتِس ؟ إِنَّ النَّيِّرَانِ تَبْدُو مُخْتَلِفَةً نَوْعًا مَا .. إِنِّي
لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَرَى بوضوح . » وَرَفَعَتْ يَدَهَا وَلَمَسَتْ شَعْرَهَا ،
وَسَرَّعَانَ مَا سَقَطَ شَعْرُهَا كُلُّهُ عَلَى الْأَرْضِ ، فَصَاحَ جُوب :

« يَا لِلْهَوْلِ ! أَنْظُرْ ! أَنْظُرْ ! إِنَّ وَجْهَهَا يَتَجَعَّدُ ! إِنَّهَا تَتَحَوَّلُ إِلَى
أَمْرَاقٍ عَجُوزٍ ! » ثُمَّ سَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ فَاقْدَا أَلْوَعِي .

كَانَ قَوْلُ جُوب صَحِيحًا ، فَقَدْ رَأَيْتُ لَوْنَ جِلْدِهَا يَتَغَيَّرُ إِلَى أَلْوَنِ
الْأَصْفَرِ ثُمَّ يُصْبِحُ بُيًّا ، وَقَدْ تَقَاطَعَتْ فَوْقَهُ آلَافُ التَّجَاعِيدِ . وَبَدَا
وَجْهَهَا صَغِيرًا غَيْرَ مُحَدَّدٍ أَلْمَعَالِمِ . وَرَقَدَتْ فَوْقَ الْأَرْضِ تَتَحَرَّكُ

وَسَقَطْتُ أَنَا عَلَى الْأَرْضِ الرَّمْلِيَّةِ فِي الْمَوْضِعِ نَفْسِيهِ فَاقْدَا الْوَعْيَ .



بَوَهْنٍ ، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ دَقِيقَتَيْنِ أَجْمَلَ أَمْرًا رَأَاهَا الْعَالَمُ .

كَانَتْ تُحْتَضِرُ أَمَامَ أَعْيُنِنَا ، فَحَمَدْنَا اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ
الْحَيَاةُ قَدْ أَمْتَدَّتْ بِهَا ، فَمَا الَّذِي كَانَتْ سَتَفَعَلُهُ ؟! وَرَفَعَتْ نَفْسَهَا عَلَى
يَدَيْهَا الَّتَيْنِ نَنَاطُ مِنْهُمَا الْعِظَامُ ، وَتَلَفَّتْ حَوْلَهَا بِعَيْنَيْنِ لَا تُبْصِرَانِ ،
وَقَالَتْ بِصَوْتٍ وَاهِنٍ مُرْتَعِشٍ : « لَا تُنْسِنِي يَا كَالِيكَرَاتِس ! إِرْثِ
لِحَالِي . وَسَوْفَ أَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى وَأَكُونُ جَمِيلَةً . »

وَسَقَطْتُ عَائِشَةً مَيِّتَةً فِي الْمَكَانِ الَّذِي قَتَلْتُ فِيهِ كَالِيكَرَاتِسَ مِنْذُ
الْفَنَى سَنَةً مَضَتْ .

إِلَى الْمَصْبَاحَيْنِ فَمَلَأْتُهُمَا بِالزَّيْتِ مِنْ وِعَاءِ الزَّيْتِ الَّذِي أَحْضَرْنَاهُ مَعَنَا .

أَخِيرًا نَهَضَ لِيُو ، وَذَهَبَ إِلَى جُوبٍ وَجَسَ يَدَهُ . وَالتَّقَطَ خُصْلَةً مِنْ شَعْرِ عَائِشَةَ ، وَضَعَطَ بِهَا عَلَى شَفَتَيْهِ ، وَقَالَ هَامِسًا :

« لَقَدْ طَلَبْتُ مِنِّي أَلَا أُسَاهَا ، وَلَنْ أُسَاهَا . وَسَوْفَ أَنْتَظِرُهَا — مِثْلَمَا أَنْتَظَرْتَنِي . »

وَلَمْ نَجِدْ صُعُوبَةً فِي أَنْ نَعْرِفَ طَرِيقَ الْعُودَةِ عَبْرَ الْكُهُوفِ ، لِأَنِّي حَرَصْتُ عَلَى أَنْ أَعِيَ الطَّرِيقَ جَيِّدًا . وَلَمْ يَتَبَادَلْ أَيْنَا الْحَدِيثَ مَعَ صَدِيقِهِ .

وَأَخِيرًا بَلَعْنَا الصَّخْرَةَ الْمُتَارِجَةَ . وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا أَلْلُوحُ الْحَشِيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ أَمَامَنَا سَبِيلٌ لِنَعْبُرَ سِوَى أَنْ نَقْفِرَ .

وَلَمْ أَكُنْ أَذْرِي فِي آيَةِ سَاعَةٍ كُنَّا ؛ فَقَدْ تَوَقَّعْتُ سَاعَتِي ، وَتَمَنَيْتُ أَنْ يَكُونَ الْوَقْتُ قُرْبَ الْمَغِيبِ ، حَتَّى يَسْتَطِعَ النَّورُ مَرَّةً أُخْرَى . وَجَلَسْنَا نَنْتَظِرُ ، لَا نَذْرِي مَا إِذَا كَانَ سَيَسْتَطِعُ ، وَلَا مَتَى سَيَسْتَطِعُ !

وَبَعْدَ مُرُورِ سَاعَاتٍ أَخْتَرَقَ الظَّلَامُ ، كَالرُّمَحِ ، شُعَاعٌ مِنَ النَّورِ الْأَحْمَرِ ، فَقُلْتُ لِيُو : « سَوْفَ أُعْبِرُ أَنَا أَوَّلًا ، وَاجْلِسْ أَنْتَ عَلَى طَرَفِ الصَّخْرَةِ الْآخِرِ لِتُبَيِّنَهَا . » ثُمَّ قُمْتُ بِعَمَلٍ لَمْ أَقُمْ بِهِ مُنْذُ كَانَ لِيُو صَبِيًّا : فَقَدْ ضَمَمْتُهُ إِلَى صَدْرِي وَقَبَّلْتُهُ قَائِلًا : « مَعَ السَّلَامَةِ ! وَآمَلُ

الفصل الثاني والثلاثون قفرة من أجل الحياة

لَا أَذْرِي كَمْ مَضَى عَلَيَّ مِنَ الْوَقْتِ ، وَأَنَا رَاقِدٌ عَلَى الْأَرْضِ ، وَلَعَلَّهُ بَضْعُ سَاعَاتٍ . وَعِنْدَمَا فَتَحْتُ عَيْنِي وَجَدْتُ صَدِيقِي رَاقِدًا بِجَوَارِي .

نَهَضْتُ ، وَالتَّقَطْتُ النَّقَابَ الْمُلْقَى ، وَبَسَطْتُهُ فَوْقَ مَنْ كَانَتْ تُسَمَّى عَائِشَةَ ، ثُمَّ اتَّجَهْتُ إِلَى جُوبِ الَّذِي كَانَ مُنْكَفِيًا عَلَى وَجْهِهِ ، فَعَدَلْتُهُ فَمَالَ رَأْسُهُ إِلَى الْخَلْفِ بِصُورَةٍ غَيْرِ طَبِيعِيَّةٍ وَدَقَّقْتُ فِيهِ النَّظَرَ فَوَجَدْتُهُ مَيِّتًا .

وَأَخِيرًا أَفَاقَ لِيُو ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ شَيْئًا آخَرَ رَهيبًا : رَأَيْتُ شَعْرَ رَأْسِهِ وَقَدْ أبيضَ مِثْلَ الثَّلْجِ ، وَبَدَأَ وَكَانَ الْعُمُرُ قَدْ تَقَدَّمَ بِهِ عِشْرِينَ عَامًا .

قُلْتُ لَهُ : « لَقَدْ مَاتَ جُوب . »

قَالَ : « آه ! » وَكَانَ جَلِيلًا أَنْ عَقَلَهُ لَمْ يَسْتَوْعِبْ مَا رَأَاهُ . وَعَمَدْتُ

أَنْ نَلْتَقِيَ مَرَّةً أُخْرَى . »

ثُمَّ تَرَاجَعْتُ إِلَى الْخَلْفِ بِقَدْرِ مَا اسْتَطَعْتُ حَتَّى أَتِمَّكَنْ مِنَ الْعَدُوِّ
أَطْوَلَ مَسَافَةٍ مُتَاحَةٍ . وَانْتِظَرْتُ هَبَّةَ رِيحٍ تَأْتِي مِنْ وَرَائِي : فَقَدْ كَانَ
أَمَلِي الْوَحِيدُ فِي الْعُبُورِ أَنْ تُسَاعِدَنِي الرِّيحُ بِإِنْدِفَاعِهَا .

وَبَعْدَ أَنْ قَفَزْتُ أَدْرَكْتُ وَأَنَا فِي الْهَوَاءِ أَنْ قَفَزَنِي جَاءَتْ أَقْصَرُ مِمَّا
يَجِبُ : فَلَمْ يَبْلُغْ الْجَانِبَ الْآخَرَ سِوَى يَدَيَّ وَجِسْمِي ، أَمَّا سَاقَايَ
فَبَقِيَتَا مُعَلَّقَتَيْنِ فِي الْفَرَاغِ تَحْتِي

وَعِنْدِيذٍ سَمِعْتُ صَرْخَةً ، وَأُبْصَرْتُ لِيُوْ وَقَدْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ وَتَحَطَّأَنِي

بِقَفْزَةٍ رَائِعَةٍ ، دَفَعَهُ إِلَيْهَا الدُّعْرُ وَمُحَاوَلَتِي الْيَأْسَةَ . وَالْقَى بِنَفْسِهِ فَوْقَ
الصَّخْرَةِ ، وَمَدَّ يَدَيْهِ وَأَمْسَكَنِي . وَسَمِعْتُ طَقْطَقَةً سَاعِدَيْهِ وَهُوَ يَنْدُلُ
مِنْ قُوَّتِهِ الْفَتِيَّةِ الْمُدْهَشَةِ وَيَرْفَعُنِي لِأَتِمَّكَنْ مِنَ الصُّعُودِ فَوْقَ الصَّخْرَةِ
أَمِنًا .

وَكَانَ عَلَيْنَا أَنْ تَحْسَسَ طَرِيقَنَا ، لِأَنَّا خَلَفْنَا وَرَاءَنَا الْمِصْبَاحَيْنِ .
وَبَقَيْنَا بِلَا طَعَامٍ وَبِلَا مَاءٍ سَاعَاتٍ عَدِيدَةً حَتَّى دَبَّ الْوَهْنُ فِي كِلَيْنَا ،
فَاسْتَلْقَيْنَا عَلَى الْأَرْضِ وَنَمْنَا . لَا أَذْرِي كَمْ مَضَى عَلَيْنَا مِنَ الْوَقْتِ
وَلَحْنُ نَائِمَانِ . وَعَاوَدْنَا سَيْرَنَا مُتَلَمِّسَيْنِ الطَّرِيقَ خُطْوَةً وَرَاءَ خُطْوَةٍ .

أَخِيرًا ، وَبَعْدَ أَنْ كِدْنَا نَفْقِدُ الْأَمَلَ ، أَبْصَرْنَا ضَوْءًا خَافِتًا أَمَامَنَا .

وَكَانَ الْوَقْتُ فَجْرًا عِنْدَمَا خَرَجْنَا مِنَ الْكَهْفِ فَقُلْتُ لِّلْيُو : « وَاصِلِ
السَّيْرِ يَا لِيُو ! إِنَّ أَمَلَنَا مَعْقُودٌ عَلَى الْآ لَا يَكُونُ بِلَالِي قَدْ ذَهَبَ . »

وَبَيْنَمَا كُنَّا نَسْلُكُ طَرِيقَنَا عَلَى أَيْدِينَا وَرُكْبِنَا مِنْ قُرْطِ ضَعْفِنَا ، إِذَا
بِوَاحِدٍ مِنَ الْخَدَمِ يَلْمَحُنَا وَيَجْرِي عَائِدًا إِلَى مِنتَقَةِ الْأَشْجَارِ .

وَرَأَيْتُ بِلَالِي يُسْرِعُ نَحْوَنَا صَائِحًا : « إِنَّهُ وَلَدِي .. وَمَعَهُ الْأَسَدُ !
لَقَدْ آيَضَ شَعْرُ رَأْسِهِ ! وَلَكِنْ أَيْنَ جُوب ؟ وَأَيْنَ « شَيْءِ الْتِي يَجِبُ
أَنْ تُطَاعَ » ؟ »

أَجَبْتُهُ : « لَقَدْ مَاتَ الْاِثْنَانِ . »



قَالَ : « لَقَدْ عَزَمْتُ بِحِكْمَتِهَا عَلَى أَنْ تَتْرَكْنَا لِفَتْرَةٍ . فَقَدْ تَغَيَّبَتْ
مَرَّةً فِي عَهْدِ وَالِدِي لِمُدَّةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً . وَيُقَالُ إِنَّهَا تَغَيَّبَتْ مُنْذُ
زَمَنِ بَعِيدٍ لِمُدَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَعَادَتْ وَفَتَكَتْ بِأَمْرٍ أَحْتَلَّتْ مَكَانَهَا
كَمَلِكَةٍ . »

وَلَمْ أَقُلْ لَهُ شَيْئًا ، وَلَكِنَّهُ وَاصَلَ حَدِيثَهُ قَائِلًا : « لَعَلَّكَ تَوَدُّ الْآنَ
أَنْ تُغَادِرَ هَذِهِ الْبِلَادَ ؟ وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُ يَوْجَدُ نَهْرٌ عَظِيمٌ وَرَاءَ السَّهْلِ
الْعَظِيمِ عَلَى مَسِيرَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ عَبْرَ الْأَرْضِ الْمُنْخَفِضَةِ ، ثُمَّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ
أُخْرَى . لَقَدْ أُنْقَذْتُ حَيَاتِي عِنْدَمَا سَقَطْتُ فِي الْمَاءِ ، وَبِاسْتِطَاعَتِي الْيَوْمَ
أَنْ أُمِدُّ لَكَ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ . وَلَكِنْ أَنْظُرْ : إِنَّ الْأَسَدَ يَسْتَيْقِظُ ، وَعَلَيْكُمَا
أَنْ تَتَنَاوَلَا الطَّعَامَ الَّذِي أُعِدَّ لَهُ لَكُمَا . »

وَغَابَ بِلَالِي عَنَّا طَوَالَ الْيَوْمِ الْتَالِي لِإِعْدِ الرِّجَالِ لِيَحْمِلُونَا
وَالْمُرْشِدِينَ لِيُرْشِدُونَا إِلَى الطَّرِيقِ .

قَالَ : « سَوْفَ أَصْطَحِبُكُمَا لِأَنِّي لَا أَتَّقِي بِهِؤُلَاءِ الْقَوْمِ . »

لَنْ أُحْكِي تَفَاصِيلَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ . فَقَدْ آجَتَزْنَا الْأَرْضَ الْمُنْخَفِضَةَ ،
وَبَلَّغْنَا سَهْلًا مَكْشُوفًا لَيْسَ بِهِ أَشْجَارٌ وَلَا آثَارُ بُيُوتٍ بَشَرٍ . وَفِي هَذَا
الْمَوْضِعِ كَانَ عَلَى بِلَالِي أَنْ يَتْرَكَنَا .

قَالَ : « وَدَاعًا يَا صَدِيقِي ، وَودَاعًا أَيُّهَا الْأَسَدُ . لَيْسَ فِي وَسْعِي

الفصل الثالث والثلاثون رَحْلَةُ الْغُزَاةِ

عِنْدَمَا اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي ، رَأَيْتُ بِلَالِي جَالِسًا بِجَوَارِ فِرَاشِي .
وَتَبَيَّنْتُ أَنِّي فِي كُوخٍ بُدِئِي صَنْعَهُ خَدَمٌ عَائِشَةٌ مِنْ فُرُوعِ الشَّجَرِ .
وَرَأَيْتُ لِيُوَ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْكُوخِ ، وَكَانَ لَا يَزَالُ نَائِمًا ، وَقَدْ
أَبْيَضَ شَعْرُ رَأْسِهِ تَمَامًا ، وَأَمْتَلَأَتْ ذِرَاعَاهُ وَوَجْهُهُ بِجُرُوحٍ أُخْدَثَتْهَا
الصُّخُورُ وَتَجَمَّدَ فَوْقَهَا الدَّمُ .

أُغْمَضْتُ عَيْنَيَّ ، فَسَمِعْتُ بِلَالِي يَقُولُ : « لَقَدْ نِمْتُ فِتْرَةً طَوِيلَةً . »

سَأَلْتُهُ : « كَمْ مِنَ الْوَقْتِ مَضَى عَلَيَّ وَأَنَا نَائِمٌ ؟ »

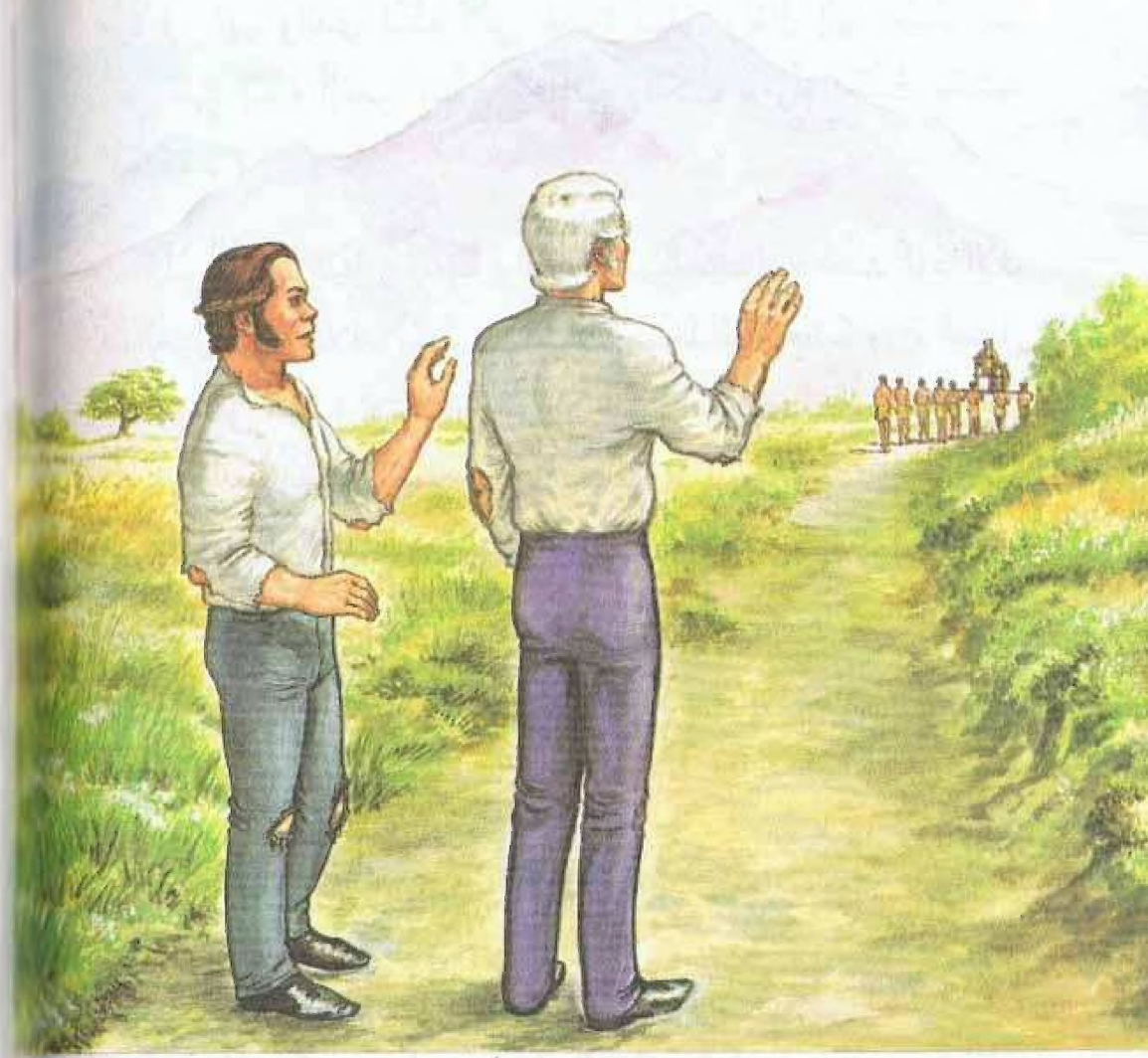
أَجَابَنِي : « يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ . أَخْبِرْنِي بِمَا حَدَثَ . »

لَمْ أُحْكِ لِبِلَالِي كُلَّ شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا أَكْتَفَيْتُ بِأَهَمِّ الْأَحْدَاثِ ، وَتَبَيَّنْتُ
أَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْ أَنَّ « شَيْءًا » قَدْ مَاتَ .

غابوا عَنْ أَنْظَارِنَا بَعْدَ أَنْ تَرَكُونَا وَحِيدَيْنِ .

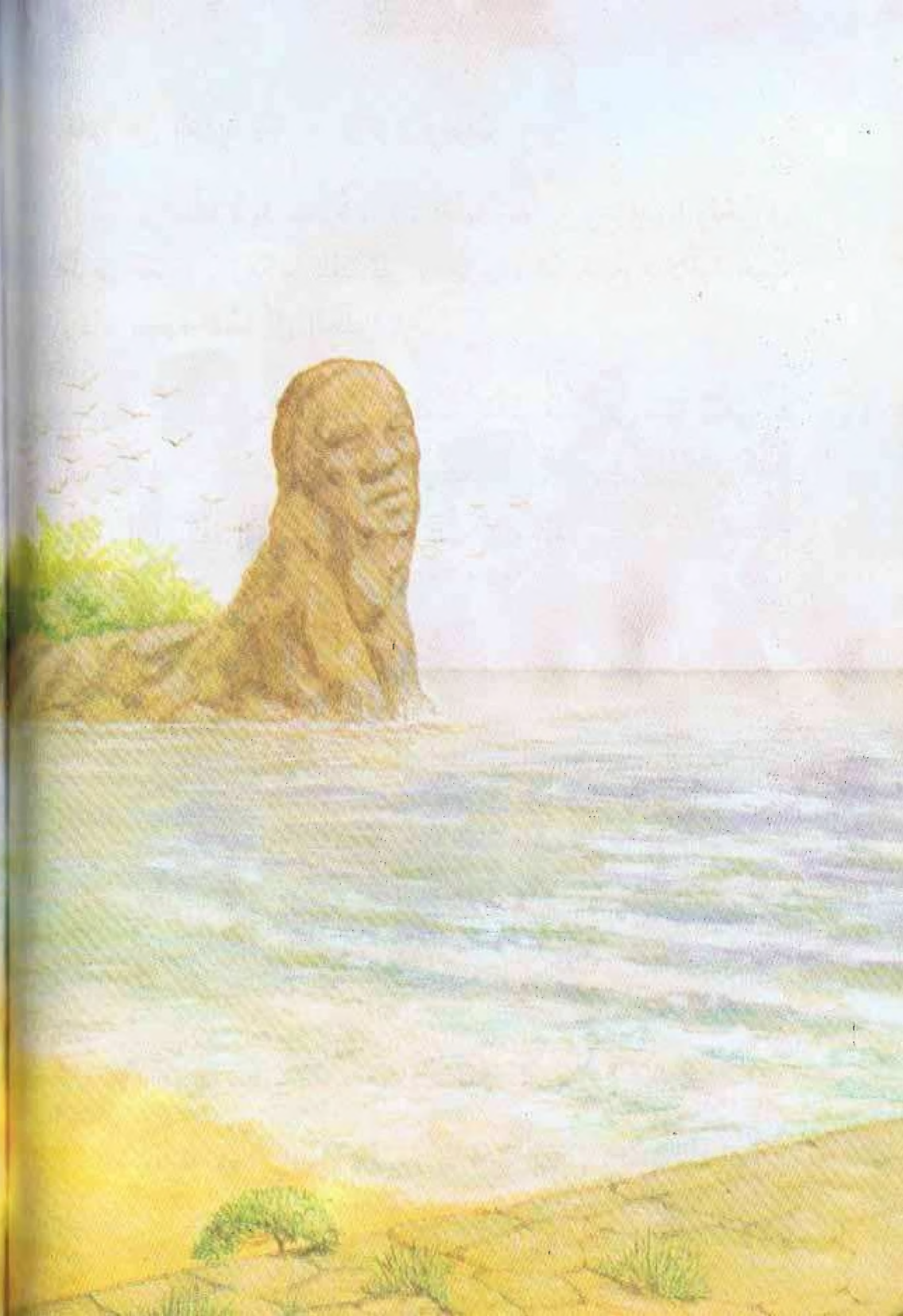
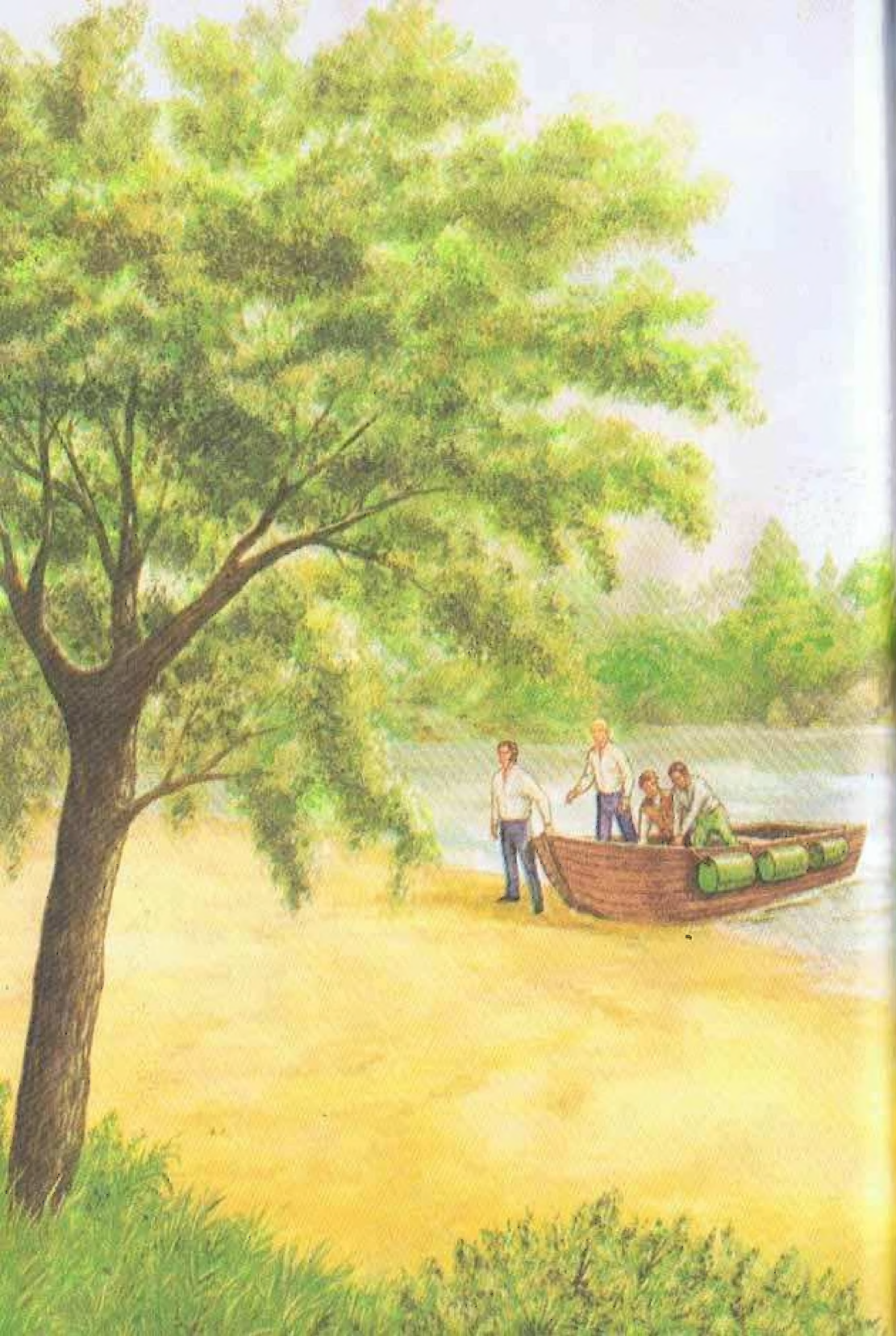
وَأَخِيرًا بَلَّغْنَا قَرْيَةً صَغِيرَةً ، كَانَ أَهْلُهَا وَدُودِينَ وَسَاعَدُونَا وَنَحْنُ فِي
طَرِيقِ الْعُودَةِ . وَهَكَذَا بَلَّغْنَا نَهْرَ زَامْبِيزِي ، ثُمَّ خَلِيجَ دِيلَاغُوا حَيْثُ
رَكَبْنَا بَاخِرَةً نَقَلْتُنَا إِلَى إِنْجَلْتِرا .

وَلَيْسَتْ هَذِهِ نِهَآيَةَ الْقِصَّةِ . فَقِصَّةٌ بَدَأَتْ مِنْذُ الْقِي سَنَةٍ يَتَّبِعِي أَنَّ
تَمْتَدُّ أَحْدَاثُهَا أَيْضًا إِلَى السَّنَوَاتِ الْمُقْبِلَةِ . وَكَثِيرًا مَا أَجْلِسُ فِي اللَّيْلِ
وَأُحَاوِلُ أَنْ أَنْفُذَ إِلَى الْمَجْهُولِ وَأَتَسَاءَلَ أَيْنَ وَكَيْفَ سَتَتَوَالِي الْأَحْدَاثُ ؟



آلَانَ أَنَّ أُسَاعِدَكُمَا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، وَسَوْفَ أَتَذَكَّرُكُمَا دَائِمًا . «

وَأَنْصَرَفَ عَائِدًا . وَوَقَفْنَا تَرْقُبُهُ هُوَ وَصَفَّ الرِّجَالِ السَّائِرِ خَلْفَهُ حَتَّى



© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ شارع حسين راسف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٨٩

رقم الإيداع: ١٨٩/٢٧٠٢

الترقيم الدولي: ٧-١٧-١٤٤٦-٩٩٧ ISBN

رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198107

طبع بتطابع أخيار اليوم

الروايات المشهورة

- ١ — جين إير
- ٢ — فرانكنشتاين
- ٣ — مونفليت
- ٤ — دراكولا
- ٥ — لورنادون
- ٦ — دكتور جيكل ومستر هايد
- ٧ — شي الملكة الأسطورة
- ٨ — كونت مونت كريستو
- ٩ — الرجل الخفي
- ١٠ — الزمن العصيب



مَكْتَبَةُ لُبْنَان

سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَح - بَيْرُوت